١٩١١

مكتبة نوبل

موريس ماترلنك

كنز البسطاء

ترجمة : انطون حمصي

كنز البسطاء

مكتبة نوبل

اسم المؤلف : موريس ماترلنك
عنوان الكتاب : كنز البسطاء
ترجمة : الدكتور انطون حمصي
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : عام ٢٠٠٠
الحقوق محفوظة

Author : Maurice Maeterlinck
Title : Le Tresor Des Humbles
Translator: Dr.Antoine Homsi
Al- Mada P. C.
First Edition 2000
Copyright © Al-Mada

Livre publié en collaboration avec le Ministère
de la Communaté Française de Belgique.

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

١٩١١

مكتبة نوبل

موريس ماترلنك

كنز البسطاء

ترجمة

الدكتور أنطون حمصي

مقدمة

صوت غريب

كان رولان بارت يقول : «الذكرى بداية الكتابة والكتابة، بدورها، بداية الموت» . الذاكرة والموت، بين هذين القطبين ينتشر الفراغ الذي هو، دون ضمانات، فراغ سؤال سحيق القدم : مسألة الكينونة . ربما كنا لا نقرأ إلا لنستعلم حول هذا الموضوع وكي نسقط، من وقت إلى آخر، أمام الاقتحام غير المتوقع لصوت فريد .

لقد خلق وصول ماترلنك الى المسرح الأدبي حدثاً من هذا النوع : أولاً في غان حيث لم يفيقوا بعد من تسلل «الرجل الطيب» الذي أوقع الاضطراب في الموثوقات المكتسبة، ثم في العالم، من باريس الى نيويورك وحتى الى موسكو حيث انصب الجهد على تملك اسم ماترلنك، وشخصه، ولكن ماترلنك، في كتبه، وحده مع إمكانيات اللغة اللامتناهية . يدع نفسه يتحدث، يكتب نفسه، يصغي الى الموسيقى التي تعبر جسده ويجعلها مرئية ممن يعرف الاستماع .

أفتح ،إذن، كنز البسطاء هذا وأدع نفسي أنصرف الى حدوسي كمحقق يتشمم بقايا حقائق على رسائل مسروقة . هذه الحقيقة كما يقول الكاتب، «هي حقيقتنا حول الموت والقدر أو الحب» . لقد تبين الاتجاه

ويكفي أن نربط الأغنية بالأخرى من أجل أن تكشف الكتابة عن نصيبها من المستعصي على العلاج في جوف تفاهة العالم . ولن يكون شيء، إن لم يكن الصمت، قد اكتسب أهمية .

فماترلنك يسعى، إذن ،الى تمثيل حقيقة لم يكن يجب أن تحدث، استثناء في هذه الحياة - من أجل الموت انبثاق الصوت في هذا الممر الخطر الذي هو الكتابة . يقول كافكا : «أليست الكتابة هي القفز خارج صف القتلة» . لن تغتقر لمؤلف «بيلياس» هذه الفرادة، فرادة كونه أقرب ما يكون الى الحرف الذي يعييه . وبين انتصارين وبضعة ضروب من سوء التفاهم، سوف تصحح طلقات الثناء . أليس ماترلنك هذا فرنكياً، صوفياً ومهووساً بالعظمة، عصابياً، بل وفصامياً، وربما كان كذلك ... ولكن ما هي كل هذه النعوت إن لم تكن دفاعات خائفة ضد من راهن على الكلام وليس على المجتمع ؟ .

وإذا كان يتحدث عما لا يوصف، عما لا يعبر عنه، عما يعجز عنه الوصف، فليس ذلك، بالتأكيد، ليختبىء وراء كلمة مكتشفة بل، على العكس من ذلك، ليعرض أسئلة طمستها الاثارة المحيطة : «من أين تأتي، إذن، خشية الإلهي في البشر ؟ » ... هذا سؤال يمكن أن يوقع الاضطراب في نظام الأولويات لو أخذه العالم في الحسبان! ولكن العالم، المتزايد الاقتراب من حافة الموت دائماً، يتدبر عدم سماعه . صحيح أن ماترلنك لا يتقدم الا في حدود حقائق لا تسمع وليس أبداً في حدود ترتيبات : «نجد أنفسنا، هنا، في لجج الليل، وننتظر فيها ما يجب أن يحصل» : أليست هذه أشياء لا تقال بصوت مرتفع ؟

الغريب مع ماترلنك هو أنه يبدو، دائماً، آخر خلاف نفسه، وغريباً

في نظر الآخرين . اسمه يذكّر، في فرنسا، بالمؤلف الموسيقي كلود ديبوسي أوبول دوكا، وفي الحد الأقصى بنحّال متميز ! وهو في بلجيكا، يثير الارتباك والابهام أو اللامبالاة في الفوضى . فمن الصحيح انه يبلور على شخصه كل العواطف المفتوحة أو المستبطنة لبلد يعاني العيش . وبالفعل، فإن هذا الحائز على جائزة نوبل الذي لم ينقطع عن الانسحاب الى مساكن متزايدة البعد لم يقتصر في جرأته على الكتابة بالفرنسية، ولكنه فعل ذلك بيسر وأناقة لم يبلغهما سوى قلة من الفرانكوفونيين .. الخالصين.. الخطأ لا يغتفر، والمعضلة متعذرة الحل بالنسبة لمهووسي النقاء العرقي واللغوي . فلا أحد إذن، يطالب به حقاً، لا سيما وأن مشرد الاقليميات هذا الذي رفض، دائماً، التخلي عن الجنسية البلجيكية - حتى ولوكان ذلك لدخول الأكاديمية الفرنسية - كان يريد نفسه كوزموبوليتياً مثل جويس وبيكيت أو باوند . أمام محكمة التاريخ، حالته غير مقبولة، غير قابلة للاسترداد في تعبير ماركس .

وفضلاً عن ذلك، بقي طيلة حياته وحيداً . وإذا كان قد ارتفع فوق الحشد، فلأنه كان خفيفاً . وإذا كان قد توصل الى الحديث الى النفس، فذلك لأنه كان يسمع الصمت والزمن الذي يجري حوله في عالم - من أجل الموت : «من منا لم يعرف هذه الدقائق البكماء التي كانت تفصل بين الشفاه لتجمع بين النفوس؟» . وهكذا، لم يكن تحديده للنفس كمحاور متميز مصادفة . فمنذ القديس أوغسطين، مروراً بشكسبير، يشهد كل كاتب كبير، كل فنان كبير على هذه الحقيقة : الاذن هي التي ترى . اليس كل عمل أدبي كبير، أولاً، موجة صوتية، أغنية، إيقاعاً للصوت الذي يولدها ؟ إن هوميروس وفيرجيل ودانتي وباوند وكذلك

بروست وفولكنر وجويس وسيلين الخ ...، وكلهم مخترعو لغات، يقدمون لأسماعنا موسيقى العالم التي لا تترجم ويبينون لنا أن الكتابة هي أن يرقص الكاتب لغته . فلا عجب، إذن أن يفتتح أول نشيد لكنز البسطاء، في قلب توليفة ماترلنك، على هذه المصفوفة الأساسية للزمن الموسيقي : الصمت «أليس العنصر الذي تتكون، فيه الأشياء الكبيرة لتستطيع، أخيراً، أن تنبثق مكتملة ومهيبة الى نور الحياة التي ستسودها ؟» فسوف تكون الكتابة محاولة سماع صوت اللامرئي هذا الذي يسائلنا . وربما ما من أحد، مثل ما ترلنك، يعلمنا بالفرنسية عن هبوطنا في متناهي العالم، في حقيقة اللغة .

ماترلنك يدلنا، دون أن يرفع صوته، على ما هو أمر نسمة البداية هذه، أمر هذا الصمت الذي يلفنا من كل الجوانب . ومن أجل ذلك، يضع نفسه، فوراً، خارج الحقيقة المزعومة حيث كل شيء مسرح كوميديا . ذلك أنه يريد أن يتحدث بلغة أخرى، الزمن هو بعدها الوحيد . أهناك لحظة نستطيع، فيها، أن نسمع الملكة ذات الشفتين المطبقتين ؟

وذلك يقوده، بصورة طبيعية تماماً، الى إجراء قفزة فوق البشرية بذهابه ليرى ويستمع في جانب الروحانيات . لأن الأمر يدور بالنسبة اليه، حول أن يجعل تجربة الحدود التي يشير اليها دانتي بكلمة «Transhuonznar، أي "عبر الانساني وتجاوزه» مرئية . وكتب الأيام، لديه، تقع، فوق ذلك، على ذرى وعرة، قليل منا من يجازف بنفسه فيها : أفلوطين، نوفاليس، أمرسون، يوم، باسكال، رويسبروك الرائع ... وهو لا يتردد في أن يترجم للأخير، الى الفرنسية كتابه «زينة الأعراس الروحية» .

وذاك رهان جميل لأنه لا يدخل متاهات الروحي القروسطي من يريد . فعمل رويسبروك، فعلاً، متجاوز للانساني ، غريب دون حدود حقاً، خارج الفهم الفلسفي . «فلا يوجد، إذن، في هذا الكتاب، لا هواء ولا نور عاديان، وهو قلعة روحية لا يتحملها الذين لم يتهيؤوا لها (...) إنه صحراء غير محدودة، سيموتون فيها ظمأً» . وبعبارة أخرى، يصعب جداً التفكير فيه .

وماترلنك الذي يواجه هذا التجاوز من جانب الحرف يغامر، مع ذلك، بابراز غير المفكر فيه للاسم الذي يتكلم . «نحن هنا، فجأة، على تخوم الفكر الانساني ومتجاوزون جداً لدائرة الروح القطبية» . وللذين يحاولون فهم شيء من صخب العالم وجنونه، قراءة الروحانيات - ورويسبروك خاصة - تبدو لا غنى عنها . وبئس الأمر إذا كان ماترلنك يجد نفسه، مرة أخرى، في موقف من أخطأ فرأى ما لم يكن ينبغي أن يراه . وهو معتاد على ذلك .. ومن جهتي، أدركت دائماً، لديه، هذا الوضوح في الذهن الذي يبطن غرابته ويحركه نحو وحدة تبعث على الدوار.

قليل منا غامروا أو سوف يغامرون بهذا الاستماع المذهل الى الصوت الذي ينفي النفي، الذي يسمي العالم الناجز وينفتح على حميمية إلهامه الخاص . وسوف يخيل اليهم أنهم يدخلون الفراغ، سوف يتكون لديهم إحساس سقوط مطرد في هوة دون قرار، بين صخور سوداء وملساء .

البشر يتوهون، الشر جذري، والتاريخ كابوس . ولكن ماترلنك يراهن على حقيقة الجسد الروحي الذي تحمله حقيقة كلمة مسكونة بالفريد الذي ينجز الكتابة بإطلاق الصمت . تجاوز الانساني .... الابتعاد قدر

الامكان عن الأرض . هذه الحقيقة تتجاوز المعارف أو الشعر . إنها تكشف، ببساطة، متعة رؤية لا تتبدل في ليل الزمان . المادة لا متناهية متعددة الأصوات، جديدة، غريبة . إنها تتكلم كل اللغات . والذين يرونها قلة .

هذا المسار الذي تُرى آثاره لدى الصوفيين ، هذا الانتقال للنظرة نحو ما لا يريد كثيرون أن يروه، يجريه ماترلنك داخل اللغة . ألم يضع نفسه على حدة .. ليكتب هذا ؟ .. ذلك أنه «إذا صح أننا، من الولادة الى الموت (...)، نتوه في الله كمسرنمين مساكين، أو كعميان يبحثون بوله عن الهيكل الذي يوجدون فيه» . فصحيح بالقدر نفسه، أيضاً، أن للكتابة رسالة هي القاء الضوء على حدودنا الانسانية التي هي أكثر مما ينبغي . ذلك أن «ما ينقصنا هو قليل من نشوة النفس» أي الأساسي: المتعة . وهنا،، أيضاً، يعلمنا ماترلنك بصوت خافت لأن تلك هي طبقة صوته، وهو لا يقسر تأثيراته أبداً . فليس ذلك من طبيعته . إنه لا يسعى الى الاقناع، ولا الى الغلبة، إنه يبين ما رآه وسمعه .

ربما كنا لا نعلم بعد ما تعنيه كلمة «أحب» . ذلك أنه «يجب أن نتعلم كيف نرى لنتعلم كيف نحب» . ينبغي لنا، فعلاً، أن نمتحن أنفسنا بالزمن، بايقاعات الحلم والنسيان ، بخفقة الرغبة وبالنقص . لحظة الانتقال التي لا تميز هذه، حيث ينبثق الصمت المسكون في الكلمة الموحى بها، يسعى، «كنز البسطاء» الى أن يتيحها لأنظارنا وأسماعنا . وضمن هذا المعنى، فإن هذا الكتاب المولود من جذرية روحية، حيث تشير موسيقى الكلمات الى الانصهار الصعب - بل المستحيل - بين الكينونة واللامتناهي الذي يتجاوزها يناسب «أزمنة الضيق» التي

يتحدث عنها هولدرن . ذلك أن كلمات البشر وأفعالهم مثقلة أكثر مما ينبغي بالفراغ . فلا ندعن أنفسنا ، إذن، نسرق «كنز البسطاء»، هذا المبعوث من النسيان . فنحن نجازف، إذ ذاك، بالوصول مبهوري الأنفاس من الجانب الآخر لجدار الواقع .

مارك رومبو

* * *

الى السيدة جورجيت لوبلان

«الصمت والسرية» ! يهتف كارليل، ينبغي أن نشيّد لهما مذابح عبادة كونية ، (إذا كانت هذه الأيام من نوع تلك التي ما زال يشيَّد فيها مذابح). الصمت هو العنصر الذي تتشكل فيه الأشياء الكبيرة من أجل أن تستطيع، أخيراً، أن تنبثق كاملة ومهيبة في ضوء الحياة التي ستسودها . فليس غيّوم الصموت، وحده، الذي كان يمتنع عن الثرثرة حول مشروعاته وإبداعاته، بل يفعل ذلك، أيضاً، كل الرجال الجديرين بالذكر الذين عرفتهم، والأقل دبلوماسية وستراتيجية من بين هؤلاء . وأنت بالذات، حاول، إذن، في حيراتك المسكينة الصغيرة، **أن تمسك لسانك خلال يوم**، وسترى في الغد كيف ستكون خططك وواجباتك أوضح ! أية بقايا وأية أقذار لم يكنسها هؤلاء العمال البكم في ذاتك، في حين أن ضجات الخارج العديمة الفائدة لم تعد تدخل ! ليس الكلام، غالباً جداً، كما قال الفرنسيون، فن إخفاء التفكير ، بل هو فن خنق التفكير ووقفه بحيث لا يبقى منه ما يخفى . الكلام كبير هو أيضاً . ولكنه ليس أكبر مما هو موجود ، كما يؤكد النقش السويسري القائل : **الكلام فضة، الصمت ذهب**، أو كما يجدر أن يقال، بصورة أفضل :

الكلام زمن، الصمت أبدية . «النحل لا يعمل الا في الظلام، الفكر لا يعمل الا في الصمت، والفضيلة في السر» .

لا ينبغي أن نظن أن الكلام يفيد، قط، في التواصلات الفردية بين الكائنات . الشفتان واللسان تستطيع أن تمثل النفس بالطريقة نفسها التي يمثل بها عدد أو رقم تسجيل لوحة لميملنك مثلاً، ولكننا نرغم على الصمت منذ أن يكون لدينا، حقاً، **ما نقوله فيما بيننا** . وإذا كنا، في هذه اللحظات، نقاوم الأوامر غير المرئية والملحة للصمت، فإننا نكون قد منينا بخسارة أزلية لن تستطيع أكبر كنوز الحكمة البشرية إصلاحها، ذلك لأننا خسرنا فرصة الاستماع الى نفس أخرى ومنح لحظة وجود لنفسنا . وهناك، حقاً، حيوات لا تعرض، فيها، مثل هذه الفرص مرتين . .

نحن لا نتكلم الا في الساعات التي لا نعيش فيها، في البرهات التي لا نريد، فيها ،أن نلاحظ أخوّتنا ونحس، فيها، أنفسنا على مسافة كبيرة من الحقيقة . ومنذ أن نتكلم، يعلمنا شيء ما بأن الأبواب الإلهية تنغلق في مكان ما . وهكذا، فنحن مقترون جداً بالصمت، وأقلنا حذراً لا يصمتون مع أول قادم . غريزة الحقائق فوق البشرية التي نملكها، جميعاً، تعرّفنا بأن من الخطر الصمت مع أحد نرغب في عدم معرفته أو لا نحبه أبداً . ذلك أن الأقوال تمر بين البشر، ولكن الصمت إذا سنحت له، لحظة، فرصة أن يكون فعالاً، لا يمحي أبداً، والحياة الحقيقية، والوحيدة التي تترك أثراً ما، ليست مصنوعة الا من الصمت . تذكروا هنا، في هذا الصمت الذي يجب اللجوء اليه أيضاً، من أجل أن يفسر نفسه بنفسه . وإذا أتيح لكم أن تهبطوا لحظة في نفوسكم حتى الأعماق

التي تسكنها الملائكة، فما سوف تتذكرونه، قبل كل شيء، عن كائن أحببتموه ويعمق، ليس الأقوال التي قالها أو الحركات التي أجراها، بل ضروب الصمت التي عشتموها معاً . ذلك أن **نوعية** ضروب الصمت هذه هي، وحدها، التي كشفت **نوعية** حبكم ونفوسكم .

لا أقترب هنا الا من **الصمت الفعال**، ذلك أن هناك صمتاً سلبياً ليس سوى انعكاس النوم، الموت أو اللاوجود . إنه الصمت الذي ينام . وهو حين ينام أقل خطراً من الكلام أيضاً . ولكن ظرفاً غير متوقع يمكن أن يوقظه فجأة، وعند ذلك، فإن أخاه، الصمت الفعال الكبير، هو الذي يعتلي العرش . كونوا على حذر . إن نفسين ستتلاقيان، الجدران سوف تخر، سدود سوف تنهار، والحياة العادية ستترك مكانها لحياة يصبح، فيها، كل شيء خطيراً جداً، حيث يكون كل شيء دون دفاع، حيث لا شيء يعود يجرؤ على الضحك، حيث لا شيء يعود يطيع، حيث لا يعود شيء يُنسى .

ولأن أحداً منا لا يجهل هذه القوة الغامضة والعابها الخطرة، فإننا نخاف هذا الخوف العميق من الصمت . نتحمل في أقصى الحدود، الصمت المعزول، صمتنا الخاص . ولكن صمت عديد من الأشخاص، الصمت المضاعف، وخاصة صمت حشد عبء خارق للطبيعة تخشى أقوى النفوس وزنه الذي لا يقبل التفسير . إننا نمضي قسماً كبيراً من حياتنا في البحث عن أمكنة لا يسودها الصمت . ومنذ أن يجتمع شخصان أو ثلاثة، فإنهم لا يفكرون الا في أبعاد العدو غير المرئي، ذلك أنه كم من صداقات عادية لا أسس لها سوى كراهية الصمت ! وإذا نجح، على الرغم من كل هذه الجهود، في أن يندس بين كائنات مجتمعة، فإن هذه

الكائنات ستدير رؤوسها بقلق، من الجانب الرسمي للأشياء التي لا تلاحظ، ثم سرعان ما ستمضي تاركة مكانها للمجهول، وسوف تتجنب بعضها بعضاً، في المستقبل، لأنها تخشى أن تصبح المعركة المزمنة عقيمة مرة أخرى، وأن تكون إحداها من أولئك الذين ربما يفتحون الباب، سراً، أمام الخصم .

معظمنا لا يفهم الصمت ولا يقبله الا مرتين أو ثلاثاً في حياته . إنهم لا يجرؤون على استقبال هذاالضيف المغلق الا في ظروف رسمية، ولكننا، جميعاً تقريباً نستقبله، إذ ذاك، استقبالاً لائقاً . ذلك أن لأشد الناس بؤساً، أنفسهم، في حياتهم برهات يعرفون، فيها، كيف يتصرفون كما لو كانوا يعلمون، فعلاً، ما تعلمه الآلهة .. تذكروا اليوم الذي التقيتم فيه، دون رعب أول صمت لكم . الساعة المخيفة كانت قد دقت وجاء أمام نفوسكم . لقد رأيتموه يصعد ميازيب الحياة التي لا يجري الحديث عنها، ومن أعماق بحر الجمال أو القبح الداخلي، ولم تهربوا . كان عند عودة، على عتبة رحيل، خلال فرح كبير ، الى جانب موت أو على حافة مصيبة . تذكروا هذه الدقائق التي انكشفت ،فيها، كل هذه الحجارة الكريمة واستيقظت، فيها ،كل الحقائق النائمة مفزوعة، وقولوا لي إذا لم يكن الصمت إذ ذاك، جيداً أو ضرورياً، ما إذا لم تكن ملاطفات العدو الملاحق باستمرار ملاطفات إلهية ؟ لم يعد يمكن نسيان قبلات الصمت التعسة - لأن المصيبة هي، خاصة، التي يعانقنا فيها الصمت . ولذلك، فإن الذين عرفوها أكثر من الآخرين يكونون أفضل منهم . ربما كانوا وحدهم الذين يعلمون على أية مياه بكماء وعميقة تستريح القشرة الرقيقة للحياة اليومية، فقد مضوا الى مزيد من التقرب

الى الله والخطوات التي خطوها في جهة الأنوار هي خطوات لم تعد تضيع، لأن النفس شيء يمكن أن لا يصعد، ولكنه لا يمكن أن ينزل أبداً .

«الصمت، إمبراطورية الصمت الكبيرة» يهتف أيضاً، كارليل - الذي عرف بجودة فائقة امبراطورية الحياة هذه التي تحملنا - «أعلى من النجوم، أعمق من مملكة الموت ! .. الصمت والرجال النبلاء الصموتون ! .. إنهم متناثرون هنا وهناك، كل في مقاطعته، يفكر في صمت، يعمل في صمت، وصحف الصباح لا تتحدث عنهم أبداً .. إنهم ملح الأرض نفسها، والبلد الذي ليس لديه من هؤلاء الرجال، أو الذي لديه أقل مما ينبغي منهم، ليس على الدرب الصحيح .. إنه غابة ليس لها جذور، التفت كلها بأوراق وأغصان ... وسوف تذبل سريعاً ولا تعود غابة ... » .

ولكن الصمت الحقيقي الذي هو أكبر ،أيضاً، وأصعب مقاربة من الصمت المادي الذي يحدثنا عنه كارليل ليس واحداً من هذه الآلهة التي تستطيع التخلي عن البشر . إنه يلفنا من كل الجهات، إنه عمق حياتنا المضمرة، ومنذ أن يقرع أحدنا مرتعشاً، أحد أبواب الهوة، فإن الصمت المتنبه نفسه هو الذي يفتح هذا الباب دائماً .

هنا أيضاً، نحن متساوون أمام الشيء الذي لا يقاس . ولصمت الملك أو العبد، حيال الموت أو الألم أو الحب، الوجه نفسه، وهو يخفي تحت معطفه الذي لا يمكن اختراقه كنوزاً متماثلة . سر هذا الصمت الذي هو الصمت الجوهري وملاذ نفوسنا الذي لا تنتهك حرمته لن يضيع أبداً، ولو التقى أول مولود بين البشر آخر سكان الأرض، فإنهما سيصمتان بالصورة نفسها في القبلات أو المخاوف أو الدموع، سيصمتان بالصورة نفسها في كل ما يجب أن يسمع دون أكاذيب . وعلى الرغم من هذا

القدر من القرون، فسوف يفهمان في الوقت نفسه، كما لو كانا قد ناما، في المهد نفسه، ما لم تتعلم الشفاه قوله قبل نهاية العالم .

منذ أن تنام الشفاه، تستيقظ النفوس وتشرع في العمل . ذلك أن **الصمت هو العنصر** المليء بالمفاجآت والأخطار والسعادة **الذي تتملك، فيه، النفوس بعضها بعضاً بحرية** . إذا أردتم، حقاً، أن تهبوا أنفسكم لشخص ما فاصمتوا، وإذا خفتم أن تصمتوا معه - ما لم يكن هذا الذي هو الخوف هو الخوف أو البخل المهيب للحب الذي يأمل في المعجزات - فاهربوا منه، لأن نفوسكم تعرف، من قبل، ما تفعل . هناك كائنات لا يجرؤ أعظم الأبطال على الصمت معها، ونفوس ليس لديها ما تخفيه وترتعش، مع ذلك، خوفاً من أن تكتشفها بعض النفوس . وهناك أخرى، أيضاً، ليس لديها صمت وتقتل الصمت حولها . وهي الكائنات الوحيدة التي تمر غير ملحوظة . إنها لا تتوصل الى عبور المنطقة الكاشفة، المنطقة الكبرى للنور الثابت والأمين . لا نستطيع أن نكوّن فكرة مضبوطة عن ذاك الذي لم يصمت قط . يمكن أن يقال أنه ليس لنفسه وجه . كتب الي شخص كنت أحبه بين الجميع يقول : «نحن لا نعرف بعضنا بعد، لم نجرؤ، بعد، على أن نصمت معاً» . وكان ذلك صحيحاً . فقد كنا، من قبل، نحب بعضنا بدرجة من العمق خفنا، معها، من الاختبار فوق الإنساني . وفي كل مرة كان فيها الصمت، ملاك الحقائق السامية ورسول المجهول الخاص بكل حب، ينزل بيننا، كانت نفسانا تبدوان وكأنهما تطلبان، **جاثيتين**، العفو وتطلبان متوسلتين بضع ساعات من الجهل أو بضع ساعات طفولة ... ومع ذلك، فيجب أن تدق ساعته . إنه شمس الحب ويستحق ثمار النفس كما تستحق الشمس الأخرى ثمار

الأرض . ولكن البشر لا يخشونه دون سبب . ذلك أننا لا نعرف، أبداً، ما سوف تكون **نوعية** الصمت الذي سيولد . إذا كانت كل الأقوال تتشابه، فإن كل أنواع الصمت تختلف، وفي معظم الأحوال، يتوقف مصير كامل على **نوعية** هذا الصمت الأول الذي ستكوّنه نفسان . حدثت مزيجات في مكان لا نعرفه لأن خزانات الصمت تقع في موضع أعلى بكثير من خزانات الفكر، والمنهل غير المتوقع يصبح كارثي المرارة أو عميق العذوبة . تستطيع نفسان رائعتان ومتعادلتا القوة أن تولّدا صمتاً عدائياً، وسوف تخوضان في الظلمات حرباً لا هوادة فيها في المكان الذي ستأتي اليه نفس سجين مجرم لتصمت إلهياً مع نفس عذراء . لا نعلم شيئاً مسبقاً، وكل هذا يجري في سماء لا تنذر أبداً، ومن أجل ذلك يؤخر أكثر العشاق حنواً، في معظم الأحيان، الى الساعات الأخيرة، الدخول الرسمي الى كاشف أعماق الكائن الكبير . أيضاً .

ذلك أنهم يعلمون - لأن الحب الحقيقي يرد أكثر الناس عبثاً الى مركز الحياة - أن كل الباقي كان العاب أطفال حول السور، وأن هذا الحين هو الذي تسقط، فيه ،الجدران وينفتح الوجود . وسوف يساوي صمتهم ما يساويه الآلهة التي يحبونها . وإذا لم يتفاهموا في هذا الصمت الأول، فإن نفوسهم لن تستطيع تبادل الحب لأن الصمت لا يتحول أبداً . يمكن أن يصعد أو يهبط بين نفسين ولكن طبيعته لن تتغير أبداً، وسوف يكون له، حتى موت العاشقين، الموقف والشكل والقوة التي كانت له في اللحظة التي دخل فيها، للمرة الأولى، الى الغرفة .

بقدر ما نتقدم في الحياة، نلحظ أن كل شيء يحدث حسب ما لا أدري من اتفاق مسبق لا تذكر حوله كلمة، بل ولا يجري التفكير فيه،

ولكننا نعلم، مع ذلك، أنه موجود في مكان ما، فوق رؤوسنا . إن أقل الناس كفاية يبتسم، لدى اللقاءات الأولى، كما لو كان الشريك القديم في قدر إخوته . وفي المجال الذي نحن فيه، يحس أولئك القادرون على أعمق الكلام ،هم أنفسهم، أوضح الاحساس بأن الكلمات لا تعبر أبداً عن العلاقات الحقيقية والخاصة القائمة بين كائنين . وإذا كنت أحدثكم، الآن، عن أخطر الأمور، عن الحب أو الموت أو المصير، فإني لا أبلغ الموت أو الحب أو القدر، وعلى الرغم من جهودي، فسوف تبقى بيننا، دائماً، حقيقة لم تقل، بل لم نفكر في قولها، ومع ذلك، فإن هذه الحقيقة التي ليس لها صوت ستكون الوحيدة التي عاشت لحظة بيننا، ولم نستطع أن نفكر في شيء آخر . هذه الحقيقة هي حقيقتنا عن الموت أو القدر أو الحب ولم نستطع أن نلمحها الا في الصمت . ولن يكون شيء، إن لم يكن الصمت، قد اكتسب أهمية . يقول طفل في حكاية جنيات : «يا أخواتي، إن لكل منكن تفكيرها السري، وأنا أريد أن أعرفه» . نحن أيضاً، لدينا شيء نود معرفته، ولكنه يختبيء في مكان أعلى بكثير من التفكير السري . إنه صمتنا السري . ولكن الأسئلة غير مجدية بل إن كل إثارة لروح متيقظة تصبح عائقاً أمام الحياة الثانية التي تعيش في هذا السر . ولمعرفة ما يوجد حقاً، يجب تنمية الصمت مع الذات لأنه لا تتفتح، لحظة، إلا فيه، الزهور غير المتوقعة والأزلية التي تبدل شكلها ولونها حسب النفس التي توجد فيها . النفوس تزن بعضها بعضاً في الماء النقي، وليس للكلمات التي تتلفظ بها من معنى الا بفضل الصمت الذي تغوص فيه . إذا قلت لأحدهم أني أحبه، فلن يفهم ما ربما كنت قد قلته لألف من الآخرين . ولكن الصمت الذي سوف يلي، إذا كنت أحبه

فعلاً، سيولد تأكداً صامتاً بدوره، وهذا الصمت، وهذا التأكد لن يكونا مرتين هما ذاتهما في حياة واحدة ...

أليس الصمت هو الذي يحدد مذاق الحب ويثبته ؟ ولن يكون للحب، إذا حرم من الصمت، مذاق ولا عطور أزلية . من منا لم يعرف هذه الدقائق البكماء التي كانت تفصل بين الشفاه لتوحد بين النفسين ؟ .

يجب السعي وراءها باستمرار . ما من صمت أطوع من صمت الحب . وهو، حقاً، الوحيد الذي لا يكون إلا لنا وحدنا . أنواع الصمت الكبيرة والأخرى، صمت الموت والألم والقدر، لا تنتمي الينا . إنها تتقدم نحونا، من عمق الأحداث في الساعة التي اختارتها، وليس على الذين لا يلتقونها أن يلوموا أنفسهم . ولكننا لا نستطيع الخروج لملاقاة أنواع صمت الحب، إنها تنتظر ليل نهار على عتبة بابنا وهي جميلة جمال اخوتها . وبفضلها يستطيع الذين لم يبكوا تقريباً أن يعيشوا مع النفوس في حميمية عيش من كانوا تعساء جداً، ومن أجل ذلك، يعرف الذين أحبوا كثيراً، أيضاً، أسراراً لا يعرفها آخرون، ذلك أن في ما تصمت عنه الشفاه حول الصداقة والحب العميقين والحقيقيين ألوفاً وألوفاً من الأشياء التي لن تستطيع شفاه أخرى، أبداً، أن تسكت عنها .

* * *

يقظة النفس

ربما سيأتي وقت، وأشياء كثيرة تعلن أنه يقترب، سوف تدرك نفوسنا فهم بعضها بعضاً من غير وساطة حواسنا . ومن المؤكد أن مجال النفس يزيد امتداداً كل يوم. أنه أقرب بكثير من كينونتنا المرئية ويتخذ في كل أفعالنا نصيباً أكبر بكثير مما كان عليه قبل قرنين أو ثلاثة . يمكن أن يقال أننا نقترب من فترة روحية . في التاريخ عدد من الفترات المماثلة التي تعاود ، فيها ، الروح منصاعة لقوانين مجهولة الصعود ، إن صح هذا القول، الى سطح البشرية، وتبدي فيها ، بصورة أكثر مباشرة، وجودها وقوتها . هذا الوجود وهذه القوة تنكشفان بألف صورة غير متوقعة ومتنوعة . ويبدو أن البشرية كانت، في هذه البرهات، على أهبة أن ترفع قليلاً عبء المادة الثقيل . يسود فيها نوع من الراحة الروحية، وأشد قوانين الطبيعة صلابة ومقاومة تنثني هنا وهناك . البشر أقرب الى ذواتهم وأقرب الى اخوتهم . إنهم يتبادلون النظر والحب بصورة أشد وقاراً وأشد حميمية . إنهم يفهمون فهماً أشد حناناً وعمقاً الطفل، المرأة، الحيوانات، النباتات، والأشياء . ربما لم تكن التماثيل واللوحات والكتابات التي تركوها كاملة، ولكني لا أعلم أية قوة وأية أنواع سرية

من الجمال تبقى، فيها، الى الأبد، حية وأسيرة . لا بد أنه كان، فيها، في نظرات الكائنات ،أخوة وآمال غامضة . ونجد في كل مكان، الى جانب آثار الحياة العادية، الآثار المتموجة لحياة أخرى لا تفسير لها .

ما نعرفه عن مصر القديمة يسمح لنا بأن نفترض أنها اجتازت إحدى هذه الفترات الروحية . وفي عهد قديم جداً من تاريخ الهند، يجب أن تكون النفس قد اقتربت من سطح الحياة الى نقطة لم تبلغها بعد ذلك أبداً، وبقايا حضورها شبه المباشر، أو ذكرياته، ما زالت تنتج، اليوم، ظواهر غريبة . وهناك كثير من برهات أخرى من النوع نفسه يبدو، فيها، العنصر الروحي يناضل في عمق الانسانية كغريق يتخبط تحت مياه نهر كبير . تذكروا، مثلاً، فارس والاسكندرية والقرنين الصوفيين من العصور الوسطى .

وبالمقابل، هناك قرون كاملة يسودها الذكاء والجمال بصورة نقية جدا ، ولكن النفس لا تظهر، فيها، أبداً . وهكذا فهي بعيدة جداً عن اليونان وروما وعن القرن الثامن عشر الفرنسي، عن سطح هذا القرن الأخير على الأقل، لأن أعماقه، مع كلود دوسان مارتان وكاغليوسترو الذي هو أخطر مما يظن وباسكاليس وآخرين كثيرين، ما زالت تخفي عناكثيراً من الأسرار . لا نعرف لماذا، ولكن شيئاً ما ليس هناك . قطعت اتصالات سرية . والجمال يغمض العيون . من الصعب جداً التعبير عن هذا بكلمات وبيان الأسباب التي لا يبدو مناخ الألوهية والقدرية الذي أحاط بالدرامات اليونانية، من أجلها، المناخ الحقيقي للنفس . نكتشف في أفق هذه التراجيديات الرائعة سراً دائماً وجليلاً أيضاً، ولكنه ليس السر الرفيق، الأخوي والفعال بصورة بالغة العمق الذي نجده في عدة أعمال

أقل عظمة وأقل جمالاً . وفي نقطة أقرب الينا، إذا كان راسين شاعر قلب المرأة االمعصوم، فمن يجرؤ على أن يقول لنا أنه لم يتقدم، أبداً، خطوة نحو نفسها ؟ بماذا ستجيبونني إذا سألتكم حول نفس أندروماك أوبريتانيكوس ؟ شخصيات راسين لا تتفاهم الا بما تعبر عنه، وما من كلمة تخترق سدود البحر . إنها وحيدة الى درجة مرعبة على سطح كوكب لم يعد يدور في السماء . هي لا تستطيع أن تسكت وإلا فلن يعود لها وجود . ليس لها **مبدأ مرئي** ويخيل للمرء أن مادة عازلة قد وضعت بينها وبين روحها، بين الحياة التي تمس كل ما هو موجود والحياة التي لا تمس الا اللحظة الآبقة لعاطفة الألم، لرغبة هناك، حقاً، قرون تعود فيها النفس الى النوم ولا يعود أحد منشغلاً بها .

من الواضح، اليوم أنها تبذل جهوداً كبيرة . إنها تتجلى في كل مكان بصورة غير طبيعية، حاسمة وملحة، كما لو كان أمر قد أعطي ولم يعد لديها وقت تضيعه . يجب أن تتهيأ لمعركة حاسمة، ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بكل ما سوف يتوقف عليه الانتصار أو الهرب . ربما لن تضع، قط، موضع العمل قوى أكثر تنوعاً وأكثر استعصاء على المقاومة . يمكن أن يقال إنها محصورة عند حائط، ولا نعرف ما إذا كان الاحتضار أو حياة جديدة هو ما يحركها . لن أتحدث عن قوى خفية تستيقظ من حولنا : عن مغناطيسية، تخاطر، استرفاع، عن صفات غير متوقعة للمادة المشعة وعن ألف ظاهرة أخرى تهز العلوم الرسمية . هذه الأمور معروفة من الجميع ويمكن أن تلمس بسهولة . وهي ليست، أيضاً، احتمالاً، شيئاً، الى جانب ما يجري في الواقع، لأن النفس كنائم يبذل، من أعماق أحلامه ،جهوداً هائلة ليحرك ذراعاً أو يرفع جفناً .

في مناطق أخرى، حيث الجمهور أقل تنبهاً، تعمل بمزيد من الكفاية أيضاً على الرغم من أنها أقل حساسية للعيون غير المعتادة على الرؤية. ألا يقال أن صوتها على أهبة أن يخترق بصرخة سامية آخر أصوات الخطأ التي ما زالت تغلفها بالموسيقى. وهل يجري، قط، الإحساس بصورة أثقل بالوزن المقدس لوجود غير مرئي منه في أعمال بعض الرسامين الأجانب؟ وأخيراً، ألا نتبين، أبداً في الآداب، أن بعض القمم تضاء، هنا وهناك، بوميض من طبيعة أخرى خلاف أغرب ومضات الآداب السابقة؟ نقترب مما لا أدري من تحول للصمت، والسامي الموجب الذي ساد حتى الآن يبدو قريباً من الانتهاء. لا أتوقف عند هذا الموضوع لأن الوقت ما زال مبكراً على التحدث بوضوح عن هذه الأشياء ولكني أعتقد أنه نادراً ما سنحت فرصة تحرر روحي لانسانيتنا أكثر الحاحاً. بل إن ذلك يشبه، في بعض البرهات، إنذاراً، ومن أجل ذلك يجب عدم إهمال أي شيء لانتهاز هذه الفرصة المهددة التي هي من طبيعة الأحلام التي تضيع دون عودة إذا لم تثبت فوراً. يجب أن نكون حذرين، فنفسنا لا تتململ دون سبب.

ولكن هذا التململ الذي لا يلاحظ بوضوح الا في الهضاب التأملية العليا للحياة ربما تجلى، أيضاً، ودون أن نرتاب به في أكثر دروب الحياة عادية. ذلك أن ما من زهرة تنفتح على الأعالي لا تنتهي الى السقوط في الوادي. هل سقطت فعلاً؟ لا أدري. ألا نتبين في الحياة اليومية، بين أبسط الكائنات، علاقات غامضة، ومباشرة، ظواهر روحية وتقاربات نفوس لم يكن يجري الحديث عنها، قط، في أزمنة أخرى. أكانت موجودة بشكل أقل يقينية قبلنا؟ يجب أن نعتقد ذلك لأنه كان هناك

في كل العصور، رجال مضوا الى عمق أكثر علاقات الحياة سرية، ونقلوا الينا كل ما تعلموه حول القلوب والأرواح والنفوس في زمنهم . من المحتمل أن هذه العلاقات نفسها كانت موجودة آنذاك، ولكنها لم تكن تستطيع امتلاك القوة النضرة والعامة التي امتلكتها في تلك البرهة . لم تكن قد نزلت الى عمق الانسانية وإلا فقد كان من شأنها أن تستوقف نظرات هؤلاء الحكماء الذين سكتوا عنها . وهنا، لم أعد أتحدث عن «الروحانيات العلمية» عن ظواهر التخاطر و «التجسيد المادي» ولا عن تجليات أخرى حددتها منذ قليل . الأمر يدور حول أحداث وتدخلات للنفس حدثت دون انقطاع في أحلك حياة لأكثر الكائنات نسياناً لحقوقها الأزلية . ويدور الأمر، أيضاً، حول سيكولوجية مختلفة تماماً عن السيكولوجية العادية التي اغتصبت اسم «بسيشه» الجميل على الرغم من أنها لا تنشغل الا بأوثق الظواهر الروحية ارتباطاً بالمادة . الأمر يدور، في كلمة واحدة، حول ما يجب أن يكشف لنا سيكولوجية تجاوزية تنشغل بالعلاقات المباشرة بين نفس ونفس لدى البشر، وتنشغل **بالحساسية** انشغالها **بالحضور الخارق** لنفسنا .

هذه الدراسة التي سترفع الانسان درجة لم تكد تبدأ، ولن تتأخر عن جعل السيكولوجية الأولية التي سادت حتى هذا اليوم غير مقبولة .

هذه السيكولوجية المباشرة، النازلة من الجبال، تكتسح، فعلاً، أصغر الأودية وحضورها يلاحظ حتى في أهزل الكتابات . لا شيء يبرهن بمزيد من الوضوح على أن ضغط النفس قد زاد في البشرية العامة وعلى أن تأثيرها الغامض قد أصبح شعبياً . نحن نلامس، هنا أشياء لا توصف تقريباً، ولا يمكن أن نعطي عنها سوى أمثلة غير كاملة وتقريبية . وها

نحن أمام مثالين أو ثلاثة كبداية محسوسة : في السابق، إذا كان الأمر يدور برهة، حول توجس، حول الانطباع الغريب لمقابلة أو نظرة، حول قرار كان قد اتخذ من الجانب المجهول للعقل البشري، حول تدخل أو قوة لا تفسير لها ومفهومة مع ذلك، حول قوانين سرية للنفور أو التعاطف، حول تناغمات اصطفائية أو غريزية، حول التأثير الراجح لأشياء لم تكن قد قيلت، فإنه لم يكن يجري التوقف عند هذه المسائل التي لم تكن تعرض الا بدرجة كافية من الندرة على قلق المفكر . لم يكن يبدو أنها تلتقي مصادفة . لم يكن هناك تخمين للوزن الديني الذي تمارسه، دون توقف، على الحياة . كان يجري التعجل للعودة الى الالعاب العادية للعواطف والأحداث الخارجية .

هذه الظواهر الروحية التي لم يكن أكثر إخوتنا تأملاً يكادون أن ينشغلوا بها في السابق، تقلق أصغرهم اليوم، هذا يثبت، مرة أخرى، أن النفس البشرية نبتة ذات وحدة كاملة وأن أغصانها تزهر، عندما تدق الساعة، في الوقت نفسه . الفلاح الذي يمنح موهبة التعبير عما في نفسه فجأة سيعبر، في هذه البرهة، عن أشياء لم تكن توجد، بعد، في نفس راسين . هكذا لمح رجال أقل عبقرية بكثير من شكسبير أو راسين حياة مضاءة سرياً لم تكن الحياة التي عرفها هذان المعلمان، وحدها، سوى مقلوب لها . ذلك أنه لا يكفي أن تتململ نفس كبيرة معزولة هنا وهناك، في المكان أو الزمان . سوف تفعل القليل أن لم تلق المساعدة . إنها زهرة الحشود . يجب أن تصل في البرهة التي يقلق، فيها، محيط النفوس . إذا وصلت في لحظة النوم، فلن تستطيع أن تتحدث سوى عن أحلام النوم . وإذا أخذنا مثالاً مشهوراً، فإن هاملت يتقدم، في

السينور، في كل لحظة حتى حافة اليقظة، ومع ذلك،و على الرغم من العرق الجليدي الذي يتّوج جبينه الشاحب، فهناك كلمات لا يتوصل الى أن يقولها لنا وسوف يمكن دون شك أن يتلفظ بها اليوم لأن نفس المتشرد أو اللص الذي يمر، نفسها، ستساعده على الكلام . وسوف يعلم هاملت اليوم، عندما ينظر الى كلوديوس أو الى أمه، ما لم يكن يعرفه لأنه يبدو أن النفوس لم تعد، فعلاً، تتحجب بالعدد نفسه من الغلالات . هل تعلمون حقاً - تلك حقيقة مقلقة وغريبة - انكم إذا لم تكونوا طيبين انه أكثر من محتمل أن يعلن ذلك حضوركم، اليوم، بصورة أكثر وضوحاً بمائة مرة مما كان يمكن أن يكون عليه منذ قرنين أو ثلاثة ؟ أتعلمون حقاً أنكم إذا أحزنتم نفساً واحدة هذا الصباح، فإن نفس هذا الفلاح الذي ستتحدثون معه عن العواصف والأمطار قد أخطرت بذلك حتى قبل أن تكون يده قد فتحت الباب ؟ خذوا وجه قديس، أو شهيد، أو بطل، إلا أن عين الطفل الذي يلتقيكم لن تحييكم بالنظرة المنغلقة نفسها إذا كنتم تحملون في أنفسكم فكرة سيئة، أو مظلمة أو دموع أخ . منذ مائة سنة، كان يمكن لنفسه أن تمر الى جانب نفوسكم غير منتبهة ...

وفي الحقيقة، فإنه أصبح من الصعب على المرء أن يغذي في قلبه، في مأمن من النظرات، كراهية أوحسداً أو خيانة لشدة ما تكون أقل النفوس مبالاة مستنفرة، دون انقطاع، حول كينونتنا . لم يحدثنا أجدادنا عن هذه الأمور، ونحن نتبين أن الحياة التي نتحرك فيها مختلفة اختلافاً مطلقاً عن تلك التي وصفوها . هل خدعونا أم كانوا لا يعلمون ؟ العلامات والكلمات لم تعد تجدي شيئاً، وكل شيء، تقريباً، يتقرر في الدوائر الروحية لحضور بسيط .

الإرادة القديمة، المعروفة والمنطقية الى حد فائق، تتحول بدورها وتعاني الاتصال المباشر مع قوانين كبيرة لا تفسير لها وعميقة . لم تعد هناك، تقريباً، ملاجىء، والنفوس تتقارب . إنها تحاكم بعضها بعضاً من فوق الكلمات والأفعال، بل حتى من فوق الأفكار، ذلك أن ما تراه دون أن تفهمه يقع بعيداً ما وراء ميدان الأفكار . وهذه هي إحدى العلامات الكبرى التي نتعرف بها على الفترات الروحية التي تحدثت عنها منذ قليل . نشعر من كل الجهات أن علاقات الحياة العادية بدأت تتغير، وأصغرنا يتحدثون ويتصرفون، فعلاً، بصورة مختلفة تماماً عن رجال الأجيال التي سبقتهم . إن جمهرة من الاصطلاحات والمواضعات والحجب والوساطات غير المفيدة تسقط، من جديد، في الهوات، وكلنا، تقريباً لم نعد، دون أن ندري، نحكم على ذواتنا الا بموجب غير المرئي . إذا دخلت للمرة الأولى الى غرفتك، فإنك لن تتلفظ، قط، بموجب أعمق قوانين علم النفس العملي، بالحكم السري الذي ينطق به كل إنسان في حضور إنسان . لن تتوصل الى أن تقول لي أين مضيت لتعرف من أنا، ولكنك ستعود اليّ محملاً بوزن موثوقات لا توصف . ربما كان من شأن أبيك أن يحكم علي بصورة مختلفة، وأن يكون مخطئاً . يجب أن نؤمن بأن الانسان سيلمس، عما قريب، الانسان، وأن الجو سوف يتغير .هل خطونا، كما يقل كلود دوسان مارتان .... الفيلسوف المجهول «الكبير» خطوة إضافية على درب بساطة الكائنات المثقف والمضيء ؟ . لننتظر بصمت، فربما سنرى، قبل انقضاء القليل ... تمتمة الآلهة ....

* * *

العارفون

يعرفهم معظم الناس وكل الأمهات، تقريباً رأينهم . ربما كانوا لا غنى عنهم مثل كل الآلام، ومن لم يقاربوهم أقل عذوبة، أقل حزناً وأقل طيبة .

إنهم غريبون . يبدون أقرب الى الحياة من الأطفال الآخرين وأنهم لا يرتابون في شيء، ولكن في عيونهم تأكداً من العمق بحيث يجب، معه، أن يكونوا عارفين بكل شيء وأنه سنح لهم الوقت، في أكثر من أمسية، من أجل أن يقولوا لأنفسهم سرهم . في البرهة التي ما يزال، فيها، إخوتهم يتلمسون حولهم بين الولادة والحياة، يكونون قد وقفوا فعلاً جاهزي الأيدي والنفس . إنهم يتهيؤون، متعجلين، بتعقل ودقة، لأن يعيشوا، وهذا التعجل هو العلامة التي ما تكاد الأمهات، المؤتمنات المتحفظات على كل ما لايقال، يجرؤن على النظر اليها .

غالباً ما لا يكون لدينا الوقت كي نلمحهم .إنهم يرحلون دون أن يقولوا شيئاً، وهؤلاء يبقون مجهولين منا، الى الأبد . ولكن آخرين يتوقفون قليلاً، ينظرون الينا مبتسمين بلطف، يبدون على أهبة الاعتراف بأنهم فهموا كل شيء، ثم يبتعدون، حوالي السنة العشرين، على عجل،

خانقين خطاهم كما لو كانوا أخطؤوا المسكن، وكما لو كانوا سيمضون حياتهم بين أناس لا يعرفونهم .

لا يقولون، هم أنفسهم، شيئاً تقريباً ويحيطون أنفسهم بغمامة في اللحظة التي يحسون، فيها، بأنفسهم مجروحين وحين يكون الانسان على أهبة الوصول اليهم . منذ أيام، كانوا يبدون وسطنا، وهذا المساء، أصبحوا، فجأة، من البعد عنا الى درجة لا نجرؤ معها على التعرف اليهم ولا على مسائلتهم . إنهم هناك، في الجانب الآخر من الحياة تقريباً، ونحس أن الساعة قد حانت، أخيراً، لتأكيد شيء أخطر ، أشد إنسانية، أكثر واقعية، وأعمق من الصداقة أو الرأفة أو الحب، شيء يخفق بجناحه، بصورة مميتة، في أقصى الحنجرة ونجهله، ولم نقله قط، ولم يعد ممكناً أن نقوله لكثرة ما تنقضي حيوات في الصمت ! ... والزمن يلح، ومن منا لم ينتظر هكذا حتى اللحظة التي لم يعد يمكن الرد عليه ؟

لماذا جاؤوا، ولماذا يرحلون ؟ ألا يولدون الا ليؤكدوا لنا أن لاهدف للحياة ؟ ما فائدة السؤال إذا كنا لن نحظى بجواب أبداً ؟ كنت عدة مرات شاهداً على هذه الأمور ورأيتها ذات يوم، بدرجة من القرب لم أعرف، معها، ما إذا كان الأمر يتعلق بآخر أم بي أنا نفسي .

هكذا مات أخ ، كان يمكن أن يقال إنه الوحيد الذي كان قد أخطر، دون أن يعلم، في حين ربما كنا نعرف شيئاً دون أن نكون قد تلقينا هذا الانذار العضوي الذي كان يخفيه منذ الأيام الأولى ... لماذا نميز الكائنات التي سترزح تحت حدث خطير جداً ؟ لا يوجد شيء مرئي، إلا أننا نرى كل شيء. إنهم يخافون منا لأننا ننذرهم باستمرار وعلى الرغم

منا . وما نكاد نقاربهم حتى ينتابهم إحساس بأننا نرتكس ضد مستقبلهم . نحن نخفي شيئاً ما عن معظم البشر ونجهل، نحن أنفسنا، ما نخفيه عنهم . تمر بين كائنين يلتقيان للمرة الأولى أسرار حياة وموت غريبة، وأسرار أخرى كثيرة ليس لها اسم بعد، ولكنها تستولي فوراً على موقفنا، على نظراتنا ووجهنا . وعندما نضغط على يدي صديق، تكون لنفسنا تطفلات ربما لا تتوقف عند عتبة هذه الحياة . يمكن أن لا يكون هناك أي قصد خفي بين إنسانين، ولكن هناك ما هو أشد الحاحاً وعمقاً من الفكر . لسنا سادة هذه المواهب المجهولة، ونخون ،دون انقطاع،النبي الذي لا يعرف الكلام . لسنا، قط، مع الآخرين كما نحن معهم في الظلام، ونظراتنا تتغير حسب الماضي والمستقبل اللذين تراهما، ولذلك نعيش على الرغم منا، متحفزين . لدى لقائنا مع الذين لم يعيشوا، لن يكونوا هم الذين نراهم، بل ما سوف يحدث لهم . سوف يريدون خداعنا، إنهم يفعلون كل شيء من أجل تضليلنا . الا أن الحدث يتلامح، فعلاً، من خلال ابتساماتهم وحماستهم للحياة، كما لوكانت دعامة وجودهم وسببه نفسه . ومرة أخرى ،خانهم الموت، وهم يرون، بحزن، أننا رأينا كل شيء وأن هناك أصواتاً لا تستطيع السكوت .

من سيقول لنا ما هي قوة الأحداث وما إذا كانت هي نحن أنفسنا أو ما إذا لم نكن نحن إلا هي؟ أتولد منا أم نحن نولد منها ؟ أنجتذبها أم تجتذبنا ؟ أنحولّها أم تحوّلنا ؟ الا تخطىء قط ؟ لماذا تأتي الينا كنحلة الى الخلية أو حمامة الى البرج ؟ وأين تلتجىء تلك التي لا نجدها في الموعد ؟ من أين تأتي للقائنا، ولماذا تشبهنا كإخوة ؟ أتؤثر في الماضي أم في المستقبل، وهل أقواها تلك التي لم تعد موجودة أم تلك التي لم

توجد بعد ؟ هل ما يغيرنا هو الأمس أم اليوم ؟ من منا لا يقضي القسم الأكبر من حياته في ظل حدث لم يقع بعد ؟ رأيت هذه المواقف الخطيرة، هذا السر الذي كان يبدو أن له هدفاً، أقرب مما ينبغي، هذا الشعور المسبق بضروب البرد الكبرى وهذه النظرة التي لا تدع نفسها تسهو، في هؤلاء أنفسهم الذين يجب أن تكون نهايتهم طارئة والذين سينقض الموت عليهم، فجأة، من الخارج . ومع ذلك، فقد كانوا يسرعون بقدر إخوتهم الذين لا يحملونه فيهم . كان لهم الوجه نفسه . لهم أيضاً، بدت الحياة أكثر جدية منها للذين سوف يعيشون . كانوا يتصرفون بالانتباه المطمئن والصامت . لم يكن قد بقي لهم وقت ،يفقدونه وكان يجب أن يستعدوا للساعة نفسها . الى هذا الحد كان هذا الحدث الذي لم يكن أي نبيّ ليستطيع التنبؤ به، على غير علم منهم، حياة حياتهم نفسها .

إن موتنا هو الذي يقود حياتنا، وليس لحياتنا من هدف سوى موتنا . موتنا هو القالب الذي تصب فيه حياتنا، وهو الذي شكل وجهنا . ينبغي عدم رسم سوى صور الموتى لأنهم، وحدهم، هم أنفسهم، ويظهرون لحظة كما هم . وأية حياة لا تضاء بالنور النقي والبارد والبسيط الذي يسقط على وسادة الساعات الأخيرة ؟ أهو هذا النور نفسه الذي يغمر، فعلاً، هذه الوجوه الطفلية عندما تبتسم بثبات وتفرض علينا صمتاً يشبه صمت الغرفة التي يسكت، أحدهم، فيها، الى الأبد ؟ عندما أتذكر الذين عرفتهم والذين كان الموت نفسه يقودهم، جميعاً، من أيديهم أرى مجموعة من أطفال ومراهقين ومراهقات يبدون وكأنهم خارجون من البيت نفسه . إنهم، من قبل، إخوة وأخوات، ويمكن للمرء أن يظن أنهم يتعارفون، فيما بينهم، بعلامات لا نراها وأنهم، في البرهة التي لا نعود

نلاحظهم، فيها، يتبادلون الإشارات التي توصي بالصمت . إنهم أبناء الموت المبكر اللطفاء . كنا، في الكلية، نميزهم، بشكل مبهم . كانوا يبدون باحثين عن بعضهم بعضاً وهاربين، في الوقت نفسه، كالذين لهم العاهة نفسها . كنا نراهم مبتعدين تحت أشجار الحديقة، كان لهم الوقار نفسه تحت ابتسامة أكثر انقطاعاً ولا مادية من ابتساماتنا، وما لا أدري من إمارات الخوف من فضح سر . كانوا يسكتون دائماً تقريباً، عندما كان يقترب من سيعيشون من جماعاتهم . أكانوا يتحدثون، منذ ذلك الحين، عن الحدث، أم أنهم كانوا يعلمون أن الحدث كان يتحدث من خلالهم ورغماً عنهم، وهل كانوا يحيطون به، على هذا النحو، من أجل إخفائه عن العيون اللامبالية ؟ كانوا ينظرون الينا، أحياناً كما لو من أعلى برج . وعلى الرغم من كونهم أضعف منا، فإننا لم نكن نجرؤ على مضايقتهم . الصحيح أن لا شيء يخفى، وأنتم الذين تلقونني، جميعاً، تعرفون ماذا فعلت وماذا سوف أفعل، تعرفون ما أفكر وما فكرت فيه، تعرفون، بالضبط، اليوم الذي يجب أن أموت فيه، ولكنكم لم تجدوا، بعد ،الوسيلة لقول ذلك، حتى بصوت منخفض وفي قلوبكم . نحن معتادون على السكوت عما لا تبلغه يدنا، وربما كنا عرفنا أشياء كثيرة لو كنا نعرف كل ما نعلمه . نحن نعيش الى جانب حياتنا الحقيقية، ونشعر بأن أكثر أفكارنا حميمية وعمقاً لا تنظر، هي نفسها، إلينا لأننا شيء آخر خلاف أفكارنا وأحلامنا . ولا نعيش أنفسنا الا في بعض البرهات وسهواً تقريباً . في أي يوم سنصبح ما نحن عليه ؟ وفي انتظار ذلك. كنّا أمامهم كما لو كنا أمام غرباء . كانوا يُرهبون حياتنا . كانوا، أحياناً يتنزهون معنا في الأروقة والباحات، وكنا نجد مشقة في اللحاق

بهم . كانوا أحياناً، يشاركوننا العابنا، ولم تكن اللعبة تبقى هي نفسها . لم يكن بعضهم يجدون إخوتهم . كانوا مشردين وحدهم وسط صيحاتنا، ولم يكن لهم أصدقاء بين الذين لن يموتوا . ومع ذلك، كنا نحبهم ولم يكن هناك وجه أكثر وداً من وجوههم . ماذا كان بينهم وبيننا، وماذا يوجد بيننا جميعاً ؟ وفي قاع أي بحر من الأسرار نعيش ؟ هنا كان يسود أيضاً هذا الحب الذي لا يعبر عنه لأنه لا يسهم في حياة هذا العالم . ربما لا يتحمل أي امتحان، يبدو في كل لحظة موضع خيانة ويبدو على أدنى صداقة أنها تغلبه، ومع ذلك، فإن حياته أعمق منا وربما لا يبدو لنا عديم الأهمية الا لأنه يعرف أنه محتفظ به لأزمنة أطول وأشد أمناً .

إنه لا يتكلم هنا لأنه يعرف أنه سيتكلم فيما بعد، وليس، قط، الذين نعانق هم الذين نحبهم أعمق الحب . لذا، فإن هناك شطراً من الحياة - هو أفضلها، أنقاها، أكبرها - لا يتدخل في الحياة العادية، وعيون العاشقين أنفسهم لا تخترق، أبداً تقريباً، هذا السد، سد الصمت والحب .

و هل كنا ندعهم وحدهم لأنهم كانوا الكبار بيننا على الرغم من كونهم أصغر سناً ؟ .. أكنا نعلم أنه لم يكن لهم العمر نفسه، أكنا نخشاهم كقضاة ؟ كانت نظراتهم، منذ ذلك الحين، أقل حركية من نظراتنا، وعندما كانوا يحدقون، صدفة، بإشاراتنا، كانت تهدأ دون سبب، ويمتد صمت غير مفهوم لحظة . كنا نلتفت : كانوا يراقبوننا ويضحكون جدياً . أتذكر وجهين اثنين منهما كان موت عنيف ينتظرهما، ولكنهم كانوا كلهم، تقريباً، خجلين، ويحاولون العبور غير مرئيين . كان فيهم ما لا أدري من عفة موتيّة، وكان يبدو أنهم يعتذرون عن خطيئة

مجهولة وقريبة . كانوا يتقدمون، وكنا نتبادل نظرة، وكنا نبتعد دون أن نقول شيئاً، وكنا نفهم كل شيء دون معرفة شيء .

* * *

من الصحيح الى حد بعيد أن الأفكار التي نملكها تعطي شكلاً اعتباطياً للحركات غير المرئية للممالك الداخلية . وهكذا، فإن هناك ألفاً وألفاً من الموثوقات التي هي ملكات محجبات تقودنا عبر الوجود ولا نتوصل الى الحديث . فمنذ أن نعبر عن شيء ما، ننتقص منه بصورة غريبة . نظن أننا غصنا الى عمق الهوات، وعندما نعود الى السطح، لا تعود قطرة الماء التي تتلألأ على طرف أصابعنا الشاحبة تشبه البحر الذي خرجت منه . نظن أننا اكتشفنا قطرة ذات كنوز رائعة، وعندما نعود الى النور، لا نكون قد أتينا الا بحجارة كريمة مزيفة وقطع زجاج . ومع ذلك، فإن الكنز يشع، بصورة لا تتغير في الظلمات . هناك شيء كتيم بيننا وبين نفوسنا، وفي بعض البرهات، نصل الى أن نرغب بحرارة بالعذاب على أمل أن نجد، أخيراً، حقيقة وأن نحس بأطراف الحقيقة الحادة وزواياها على حد قول أمرسون .

قلت في مكان آخر إن النفوس، على ما يبدو، تتقارب : وليس لذلك من قيمة سوى القيمة التي يمكن أن تكون لانطباع دائم، ولكنه مبهم، بأن من الصعب جداً الاستناد الى وقائع لأن الوقائع ليست سوى

متشردي القوى الكبرى التي لا نراها وجواسيسها ومخلفاتها . ومع ذلك، قد يقال إننا نحس في بعض اللحظات، بصورة أعمق من آبائنا احتمالاً، بأننا لسنا أمام حضورنا نحن وحدنا . والذين لا يؤمنون بأي إله، كالآخرين تماماً، لا يتصرفون، في داخلهم، كما لو كانوا واثقين من كونهم وحيدين . هناك رقابة عامة تمارس في مكان آخر غير الظلمات الحليمة لضمير كل إنسان . أصحيح أن الآنية الروحية مختومة بقدر من الضبط أدنى مما كانت عليه سابقاً، وأن تموجات البحر الداخلي تصبح أشد قوة ؟ لا أدري . كل ما نستطيعه هو أن نتبين أننا لم نعد نعلق الأهمية نفسها على عدد من الخطيئات التقليدية، وهذه، منذ الآن، علامة غزو روحي .

يبدو أن أخلاقنا تتحول وأنها تتقدم، بخطى صغيرة، نحو قارات أعلى مما لا نزال نراه . ومن أجل ذلك، ربما كانت قد حانت اللحظة التي نطرح، فيها، على أنفسنا، بعض الأسئلة الجديدة . ما الذي سيحدث، مثلاً لو أصبحت نفسنا مرئية، فجأة، وكان عليها أن تتقدم وسط أخواتها المتجمعات منزوعة الغلالات، ولكنها مشحونة بأكثر أفكارها سرية وتجر وراءها أكثر أفعال حياتها التي لم يكن شيء يستطيع التعبير عنها، غموضاً ؟ من أي شيء سوف تحمر خجلاً ؟ ما الذي ستريد أن تخفيه ؟ هل ستعمد، مثل امرأة محتشمة، الى الالقاء بمعطف شعرها الطويل على خطايا الجسد التي لا تحصى ؟ لقد جهلتها، وهذه الخطايا لم تصل اليها أبداً . لقد اقترفت على مسافة الف ميل من عرشها، ونفس الروحي ذاتها قد تمر وسط الحشد دون أن ترتاب في شيء، حاملة، في عينيها، ابتسامة الطفل الشفافة . إنها لم تتدخل، كانت تتابع

حياتها في جهة الأنوار، وهذه الحياة وحدها هي التي سوف تتذكرها .

أية خطايا وأية جرائم عادية يمكن أن تكون قد اقترفتها ؟ هل خانت، هل خدعت، هل كذبت ؟ هل عذبت وأبكت ؟ أين كانت عندما سلم هذا أخاه للأعداء ؟ ربما كانت تنتحب بعيداً عنه وسوف تكون، منذ تلك البرهة، قد أصبحت أعمق وأجمل . لن تخجل، قط، مما لم تفعله، ويمكنها أن تبقى نقية في مركز جريمة قتل كبرى . وغالباً ما تحول كل الشر الذي يجب، حقاً، أن تشهده الى إضاءات داخلية . كل شيء يتوقف على المبدأ غير المرئي، ومن هنا تولد دون شك، سماحة الآلهة التي لا تفسير لها .

ومن هنا تولد سماحتنا، هي أيضاً. لا نستطيع الامتناع عن الغفران . عندما يكون الموت «المصالح الكبير» قد مرّ، من منا لا يقع على ركبتيه، ولا يبدي، في صمت، مبادرة المغفرة للنفس المهجورة ؟ إذا أتيت أنحني على الجسد الهامد لأسوأ عدو لي، هل تظنون، إذن، أني ما أزال أفكر بالثأر وأنا أنظر الى شفتيه الشاحبتين اللتين افترتا عليّ والى عينيه المطفأتين اللتين أبكتا عينيّ ويديه الباردتين اللتين ربما كانتا قد عذبتاني ؟ كل شيء دفع ثمنه بالموت أثناء عبوره . والنفس لم تعد تدين لي بشيء، وأنا أضعها، غريزياً، فوق أقسى الأضرار وأخطر الأخطار (كم هي رائعة وذات دلالة هذه الغريزة!) . وإذا كنت آسف لشيء، فليس لكوني لا أستطيع أن أؤلم بدوري، بل ربما لكوني لم أحب بصورة كافية أو لم أغفر في وقت أبكر .

قد يقال إننا نفهم، من قبل، هذه الأشياء في أعمق أعماقنا . ليس ما نحكم بموجبه على اخوتنا أفعالهم، ولا حتى بموجب أكثر أفكارهم

سرية، لأن الأفكار السرية ليست مقروءة دائماً . ونحن نمضي، حقاً، الى ما وراء غير المقروء . يمكن لإنسان ما أن يكون قد اقترف كل الجرائم التي اتفق على كونها أحقرها دون أن يعكر أكبر هذه الجرائم ،لحظة واحدة، نفحة النضارة والنقاء اللامادي اللذين يحيطان بحضوره، في حين يمكن لمقاربة شهيد أو حكيم أن تغطي نفوسنا بظلمات كثيفة لا تحتمل . سوف يختار بطل أو قديس صديقه بين الوجوه التي تقرأ عليها دون مشقة، عادة ،كل الأفكار المنحطة، ولن يحس بنفسه «في جو أخوي أو إنساني» الى جانب كائن آخر يشرق جبينه بأسمى الأحلام وأكرمها . ماذا يعني هذا ؟ وما الأخبار التي تحملها هذه الأمور ؟ أهناك، إذن، قوانين أعمق من تلك التي تسود الأفعال والأفكار ؟ ماذا علمونا، ولماذا نتصرف دائماً بموجب قواعد لا يجري الحديث عنها، وهي وحدها المؤكدة ؟ ذلك أننا نستطيع أن نؤكد أن البطل والقديس لم يخطئا، هنا، أبداً، على الرغم من المظاهر . إنهما لم يفعلا سوى الانصياع، وإذا خان القديس الانسان الذي اختاره وباعه، فإن شيئاً لا يتزعزع سيبقى، مع ذلك، وسيقول له إنه لم يكن هناك خطأ وإنه ليس عليه التأسف على شيء . فلن تنسى النفس أن النفس الأخرى، كانت صافية ...

نتنفس، ونحن نزحزح الحجر المجهول تقريباً الذي يغطي هذه الأسرار، الرائحة الفائقة القوة للهوة، وتسقط الكلمات وفي الوقت نفسه الأفكار، من حولنا كذباب مسمم . الحياة الداخلية نفسها تبدو شيئاً صغيراً لدى هذه الأعماق التي لا تتغير . هل ستفخر، في حضور ملاك، بأنك من لم يخطىء قط، الا توجد براءة أدنى ؟ هل أنتم واثقون من أن يسوع، حين قرأ الأفكار التعسة للفريسيين الذين أحاطوا بمشلول كفر ناحوم، حكم

أيضاً، على نفوسهم بنظرة مماثلة، من أنه أدانها في الوقت نفسه ومن أنه لم يلمح، وراء هذه الأفكار، صفاء ربما كان لا يعكر ؟ هل كان إلهاً لو كان حكمه غير قابل للمراجعة ؟ ولكن، لماذا يتحدث كما لو كان يتوقف عند الخارج ؟ هل سيترك أحط أنواع التفكير أو أنبل الأفكار أثراً على المحور الماسي ؟ وأي إله، إذا كان حقاً، في الأعالي، سيستطيع الامتناع عن الابتسام لأخطر أخطائنا كما يبتسم المرء لألعاب الكلاب الصغيرة على السجادة ؟ وماذا سيكون إله لا يبتسم ؟ أتعتقدون أنكم ستتجشمون، إذا أصبحتم أنقياء عناء حجب الدوافع الصغيرة لأعمالكم الكبيرة عن نظرات الملائكة المجتمعة ؟ ومع ذلك، أليس فينا أكثر من شيء يمكن أن ينزل في عيون الآلهة الجالسين على الجبل ؟ . من المؤكد أنه موجود، ونفسنا لا تجهل أنها ستؤدي حساباً . إنها تعيش، دون أن تقول شيئاً، تحت يد قاض كبير لا نتوصل الى فهم أحكامه . ولكن ماذا ستكون عليه هذه الحسابات ؟ أين نجد الأخلاق التي تذكرها ؟ . هل هناك أخلاق غامضة تسود في مناطق أبعد من مناطق أفكارنا، وهل يوجد نجم مركزي لا نراه ولا تكون أكثر رغباتنا سرية سوى كواكبه العاجزة ؟ هل توجد، في مركز كينونتنا، شجرة شفافة ليست كل أفعالنا وكل فضائلنا سوى أزهارها وأوراقها العابرة ؟ سوف نجهل، في الحقيقة، أي شر يمكن أن تقترفه نفسنا ولا نعلم، بعد، من أي شيء سوف نحمر خجلاً أمام ذكاء أعلى أو أمام نفس أخرى . ومع ذلك، فمن منا يجد نفسه نقياً ولا يرهب قاضياً ؟ أية نفس لا تخاف من نفس أخرى ؟

* * *

هنا لم نعد في الأودية المعروفة للحياة الحيوانية أو النفسية . وصلنا الى أبواب السور الثالث : سور حياة الصوفيين الإلهية . ليس بالتلمس نعبر عتبته . ثم بعد أن نعبر العتبة أين هي الموثوقات ؟ أين تختفي هذه القوانين الرائعة التي ربما كنا ننتهكها باستمرار، دون أن يرتاب في ذلك ضميرنا على الرغم من أن نفسنا قد أخطرت ؟ ومن أين كان يأتي، إذن، ظل هذه الانتهاكات الغامضة الذي كان يخيم، أحياناً، على حياتنا، ويجعل عيشها فجأة مخيفاً الى هذا الحد ؟ ما هي الخطايا الروحية الكبيرة التي يمكن أن نقترفها ؟ هل سنخجل من كوننا قد حاربنا ضد نفسنا، أم أن نفسنا تحارب بصورة غير مرئية، ضد الله ؟ وهل هذه المعركة صامتة الى حد لا يخترق، معه، تأوه الجدران ؟ أهناك برهة لا نستطيع، فيها، سماع الملكة ذات الشفتين المطبقتين ؟ إنها تصمت دون أمل في كل أحداث السطح، ولكن ألا توجد أخرى لا نكاد نلاحظها وتمس، مع ذلك، قوى أزلية وعميقة ؟ هوذا أحدهم يموت، ينظر أو يبكي . آخر يقترب للمرة الأولى، أو أن عدوكم هو الذي يمر : هل يحتمل ،أبداً، أن تكون هذه اللحظة هي التي تهمس عندها ؟ وماذا لو أصغيتم اليها، في حين لم تعودوا، فعلاً، تحبون، في المستقبل، الصديق الذي تبتسمون له في هذه البرهة ؟ ولكن كل هذا ليس شيئاً، بل لا يقترب من الاضاءات الخارجية للهوة . لا يمكن الحديث عن هذه الأشياء لأننا وحيدون الى حد أكبر مما ينبغي . ويقول نوڤاليس : «لا تتحرك النفس، حالياً، الا هنا وهناك، متى إذن، سوف تتحرك كلياً، ومتى ستبدأ البشرية في الوعي بكثافة ؟» ... هذا هو، فقط، الشرط الذي سيتعلم، بموجبه، بعضهم شيئاً ما . يجب أن ننتظر بصبر أن يتشكل هذا

الوعي العالي شيئاً فشيئاً . ويمكن إذا ذاك أن يتوصل واحد من الذين سيأتون الى التعبير عما نحس به، جميعاً، في هذه الجهة من النفس التي هي وجه القمر الذي لم نره منذ بداية العالم .

* * *

في هذه المجالات، أيضاً، القوانين مجهولة . فوق رؤوسنا، تشع في مركز السماء نجمة الحب المكرس لنا، وكل غرامياتنا ستولد، حتى النهاية، في أشعة هذه النجمة وجوها . عبثاً نختار يمنة أو يسرة، في الأعالي كما في العوالم السفلية، وعبثاً، من أجل الخروج من هذه الدائرة المسحورة، التي نحس بها حول كل أفعال حياتنا، ننتهك غريزتنا ونحاول الاختيار ضد اختيار نجمنا، فسوف نصطفي، دائماً، المرأة النازلة من النجم الذي لا يتغير . وإذا قبِّلنا منهن مثل دون جوان، ألفاً وثلاثاً، فسوف نعرف، عندما يأتي المساء الذي تنفك، فيه، الأذرعة عن بعضها بعضاً وتنفصل الشفاه، أنها كانت، أيضاً، المرأة نفسها، الطيبة أو الرديئة ،الحنون أو القاسية، المحبة أو غير الوفية، هي التي تقف أمامنا .

والحقيقة هي أننا لا نخرج، أبداً، من دائرة الضوء الصغيرة التي يرسمها قدرنا حول خطواتنا، وسوف يقال أن أبعد الرجال يعرفون لون هذه الحلقة التي لا يمكن اجتيازها وسعتها . إن لون هذه الأشعة الروحية هو الذي يرونه والذي يجعلهم يمدون أيديهم الينا باسمين أو يسحبونها بخوف . نعرف بعضنا بعضاً، جميعاً، في جو عالٍ، والفكرة التي أكونها

عن مجهول تنتمي الى حقيقة غامضة وأعمق من الحقيقة المادية . من منا لم يحس بهذه الأشياء التي تجري في المناطق التي لا يمكن دخولها من البشرية شبه النجمية ؟ إذا تلقيت رسالة جاءت من أعماق جزيرة ضائعة في قلب المحيطات الكبيرة، وكتبتها يد تجهل وجودها، هل أنت متأكد حقاً، من أن مجهولاً هو الذي كتب اليك، ألا تحس، في البرهة التي تقرأ فيها، حول النفس التي تلقاك على هذا النحو - في حلقات لا تعرفها الا الآلهة وحدها -، بموثوقات أشد صموداً وخطورة من كل الموثوقات العادية ؟ ومن جهة أخرى، هل تعتقد أن هذه النفس التي كانت تفكر بنفسك، في مصادفات المكان والزمان، لم تكن تملك، هي أيضاً، موثوقات مماثلة ؟ هناك ،من كل الجهات، تعرفات عديدة، ونحن لا نستطيع أن نخفي وجودنا . لا شيء يبدو أنه يلقي على الصلات الدقيقة التي يجب أن توجد بين كل النفوس ضوءاً أشد خصوصية من هذه الأسرار الصغيرة التي تصحب تبادل الرسائل بين مجهولين . ربما كان واحداً من الشقوق الضيقة - بائساً دون شك - ولكنه يوجد منها عدد من القلة بحيث ينبغي علينا الاكتفاء بأكثر الومضات شحوباً - في باب الظلمات نستطيع أن نرتاب عبره، لحظة بما يمكن أن يجري في مغارة الكنوز التي لم تكتشف أبداً . افحصوا المراسلات السلبية لرجل ما، وسوف تجدون فيها ما لا أدري من وحدة فريدة . لا أعرف هذا ولا ذاك اللذين يسائلانني هذا الصباح، ومع ذلك، فأنا أعلم، من قبل، أني لن أستطيع الرد على الأول بالصورة نفسها التي سأرد بها على الثاني . لقد رأيت شيئاً غير مرئي . وبدوري، إذا كتب إليّ أحد لم أره قط، فإني واثق من أن رسالته ليست، بالضبط، تلك التي كان يمكن أن يكتبها الى

الصديق الذي ينظر اليّ الآن . سوف يكون هناك، دائماً، فرق روحي لا يفهم . إنه علامة النفس التي تحيي بصورة غير مرئية نفساً أخرى . يجب أن نظن أننا نعرف بعضنا بعضاً في مناطق لا نعرفها وأننا نملك وطناً مشتركاً نذهب اليه، نلقى بعضنا فيه أو نعود منه دون مشقة .

وهذا الوطن المشترك، أيضاً، هو الذي نختار فيه معشوقاتنا، ومن أجل ذلك لا نخطىء ولا تخطىء معشوقاتنا بدورها . مملكة الحب هي ، قبل كل شيء، مملكة الموثوقات الكبيرة، لأنه المملكة التي يكون للنفوس، فيها، أكبر متسع . هنا، ليس لديها ما تفعله، حقاً، سوى التعارف، سوى تبادل الاعجاب بصورة عميقة والتساؤل، والدموع في العين، كأخوات صغيرات يتلاقين، في حين تتشابك الأذرعة وتتصالب الشفاه بعيداً جداً عنها .. ولديها أخيراً، الوقت لتتبادل الابتسام ولتعيش برهة، لذاتها في هدنة للحياة القاسية واليومية . وربما كانت أعالي هذه الابتسامات وهذه النظرات التي لا توصف هي التي ينتشر منها، على أكثر دقائق الحب شحوباً، الملح الغامض الذي يحفظ، الى الأبد، ذكرى لقاء فمين ..

ولكني لا أتحدث هنا الا عن الحب السابق التكريس والحقيقي : عندما نلتقي واحدة من اللواتي احتفظ بهن لنا القدر وأخرجها من عمق المدن الروحية الكبيرة حيث نعيش دون أن ندري ليرسلها الى ملتقى الطرق الذي يجب أن نمر به في الساعة المحددة، فنحن نعرف منذ النظرة الأولى . بعضهم يحاول، إذا ذاك، أن يغتصبوا القدر . ويمكن أن نضع اليدين على الجفون بحنق من أجل أن لا نعود نرى ما وجب أن نراه، وأن نتوصل، مناضلين بكل قوانا الصغيرة ضد قوى أزلية، الى اجتياز

الطريق للمضي نحو مرسلة أخرى ليست هنا من أجلنا . ولكننا عبثا نفعل، فلن ننجح في «تحريك الماء الميت في دنان المستقبل الكبرى ». لن يحدث شيء . قوة المرتفعات الخالصة لن تريد النزول وهذه القبل وهذه الساعات غير المجدية سترفض أن تضاف الى ساعات حياتنا وقبلها الحقيقية .

القدر يغمض عينيه أحياناً، ولكنه يعرف جيداً أننا سنعود اليه مساء كما لو كان ينبغي أن تكون له، هو الكلمة الأخيرة . يمكن أن يغمض عينيه، ولكن الزمن الذي يغمضهما، فيه ،هو زمن ضائع ..

يبدو أن المرأة أكثر منا تبعية للأقدار . إنها تعانيها ببساطة أكبر بكثير . وهي لا تناضل، أبداً، بصدق ضدها، وهي أقرب أيضاً، بكثير الى الله، وتسلم نفسها لعمل السر الخالص بمقدار أقل من التحفظ . ولهذا السبب، دون شك، يبدو أن كل الأحداث التي تمتزج، فيها، بحياتنا تردنا نحو شيء يشبه ينابيع القدر نفسها . والى جانبها، خاصة، يظهر، في بعض اللحظات، «حدس واضح» بحياة لا تبدو، دائماً، موازية للحياة الظاهرة . إنها تقربنا من أبواب كينونتنا . من يدري ما إذا لم يكن الأبطال يتعرفون على قوة نجمهم ووفائه في واحدة من تلك اللحظات العميقة التي ينامون فيها، على صدرها، وما إذا كان الرجل الذي لم يسترح على قلب امرأة سيكون له، قط، الاحساس المضبوط بالمستقبل .

ندخل مرة أخرى في الدوائر العكرة للوعي الأعلى . آه كم هو صحيح، هنا أيضاً، أن «السيكولوجيا المزعومة هي إحدى هذه اليرقات التي اغتصبت في الهيكل، المكان المحتفظ به للصور الحقيقية للآلهة» !

ذلك أن الأمر لا يدور حول السطح دائماً، ولا يدور حول أخطر السرائر . هل تعتقدون، إذن أنه لا يوجد في الحب سوى أفكار وأفعال وأقوال، وأن النفوس لا تخرج من هذه السجون ؟ هل أنا في حاجة الى أن أعرف ما إذا كانت تلك التي أعانقها، اليوم، غيورة أو وفية، ضاحكة أو حزينة، صادقة أو خؤوناً ؟ هل تتخيلون أن هذه الكلمات الصغيرة البائسة ستصعد الى الذرى التي تقع، فيها، نفوسنا وحيث يكتمل القدر بصمت ؟ ماذا يهمني في كونها تحدثني عن المطر أو الحلى، عن الأقلام أو عن الإبر، وأن يبدو عليها أنها لا تفهمني ؟ أتعتقدون أني ظمآن الى كلمة سامية، وأني لا أعلم أنه لا يحق لأروع الأفكار أن ترفع رأسها أمام الأسرار ؟ أنا دائماً، على ضفة المحيط ولو كنت أفلاطون أو باسكال أو ميكيل أنجيلو، وحدثتني معشوقتي عن قرطيها، فإن كل ما سأقوله، كل ما ستقوله لي سيطفو، بالمظهر نفسه، على أعماق البحر الداخلي الذي يتأمله كلانا . لن تزن أعلى أفكاري في ميزاني الحياة أو الحب، أكثر من الكلمات الثلاث الصغيرة التي سيقولها الطفل الذي أحبني عن خواتمه الفضية الصغيرة، عن عقده، عقد اللآلىء أو القطع الزجاجية .

إننا نحن الذين لا نفهم، لأننا ما زلنا في العوالم السفلية لذكائنا . يكفي أن نصعد حتى ثلوج الجبل الأولى، وعند ذلك، فإن كل ضروب اللامساواة ستسوى تحت اليد المطهرة للأفق الذي ينفتح . ما الفرق إذ ذاك، بين قول لمارك أوريل وعبارة الطفل الذي يبين أن الطقس بارد ؟ لنكن متواضعين، ولنعرف التمييز بين العرض والجوهر . لا ينبغي لـ «العصي السحرية» أن تنسينا روائع الهوة . أجمل الأفكاروأحط الفكِر لا تعكر الوجه الأزلي لنفوسنا أكثر مما تعدل جبال الهيمالايا أو الهوات،

وسط نجوم السماء، وجه أرضنا . نظرة، قبلة، والتأكد من حضور غير مرئي وقوي : هذا هو كل شيء، وأنا أعلم أني الى جانب مساوية لي ...

لكن المساوية رائعة وغريبة حقاً. وأدنى البنات تملك حين تحب، شيئاً ليس لدينا أبداً، لأن الحب في تفكيرها أزلي . ألهذاالسبب تكون لهن جميعاً، مع القوى البدائية، علاقات ممنوعة علينا ؟ أفضلنا يوجدون، دائماً تقريباً، على مسافات بعيدة من كنوزهم، كنوز السور الثاني . وعندما تقتضي برهة رسمية في الحياة إحدى جواهر هذا الكنز، فإنهم لايعودون يتذكرون الدروب التي تؤدي اليها . وعبثاً يقدمون جواهر مزيفة من ذكائهم الى الظرف الملح، والذي لا ينخدع .. ولكن المرأة لا تنسى، قط، طريق مركزها، وسواء فاجأتها في الرفاه أم في البؤس، في الجهل أم في العلم، في العار أم في المجد، وإذا قلت لها كلمة تخرج، حقاً، من أعماق نفسي العذراء، فسوف تعرف كيف تجد الدروب الغامضة التي لم تغب، قط، عن نظرها . وسوف تحمل الي، دون تردد، ببساطة، من قاع احتياطيات الحب التي لا تنضب، كلمة، نظرة، أو حركة تكون في نقاء حركتي، يمكن أن يقال أن نفسها في متناول يدها دائماً . إنها مستعدة، ليل نهار، للاستجابة لأعلى مقتضيات نفس أخرى . وأفقر جزية لا تتميز عن جزية الملكات .

فلنقترب، باحترام، من أصغرهن، وأكثرهن زهواً، من اللاهيات ومن أولئك اللواتي يفكرن، من اللواتي ما زلن يضحكن ومن اللواتي يبكين . ذلك أنهن يعرفن أشياء لا نعرفها، ويملكن مصباحاً فقدناه . إنهن يسكنّ عند سفح المحتوم نفسه، ويعرفن، أفضل منا دروبه . ومن أجل ذلك لهن

موثوقات مدهشة ورصانات رائعة، ونرى جيداً أنهن، في أدنى أفعالهن، يشعرن بأنفسهن مدعومات من أيدي كبار الآلهة الواثقة والقوية . منذ قليل أكدت أنهن يقتربن بنا من أبواب كينونتنا، ويخيل الى المرء حقاً، أن كل علاقاتنا بهن تجري في فرجة هذا الباب البدائي وفي الهمسات غير المفهومة التي صاحبت، دون شك، ولادة الأشياء، في حين لم يكن يجري الحديث ،بعد، الا بصوت خافت خوفاً من عدم سماع منع أو أمر غير متوقع.

لن تجتاز عتبة هذا الباب، وتنتظرنا في الجانب الداخلي حيث توجد الينابيع . وعندما نأتي لنقرع من الخارج تفتح لنا، لا تنسى يدها، أبداً المفتاح أو المصراع . إنها تنظر لحظة الى الموفد الذي يقترب، وفي هذه البرهة القصيرة، علمت كل ما يجب أن تعلمه . والسنوات المقبلة اختلجت حتى نهاية الأزمان ...

من سيقول لنا ماذا تحتوي عليه نظرة الحب الأولى ،«هذه العصا السحرية المصنوعة من شعاع نور منكسر» ، شعاع خرج من البؤرة الأزلية لكينونتنا، غيّر نفسين، وجدد شبابهما عشرين قرناً ؟ الباب يفتح أيضاً، أو يغلق من جديد . توقفوا عن كل جهد لأن كل شيء قد تقرر . إنها تعلم . لن تحسب حساباً لأفعالكم، لأقوالكم، لأفكاركم . وإذا كانت ما تزال تراقبها، فإنها لن تعود تفعل ذلك إلا باسمة . وسوف ترفض، دون أن تعرف كل ما لا يأتي ليثبت موثوقات هذه النظرة الأولى . وإذا خيل اليكم أنكم تضللونها، فاعلموا، جيداً، أنها على صواب ضدكم وأنكم أنتم وحدكم الذين يضيعون لأن ما أنتم عليه، في نظرها، أكثر واقعية مما يخيل اليكم أنكم عليه في نفوسكم، في الوقت

نفسه الذي تنخدع، فيه باستمرار، حول معنى ابتسامة أو حركة أو دمعة ...

إنها كنوز مخبوءة ليس لها حتى اسم ! .. أودّ من كل الذين يحسون أنهن سيئات أن يعلنوا ذلك بدورهم ويذكروا لنا أسبابهم، وإذا كانت هذه الأسباب عميقة، فسوف ندهش ونمضي بعيداً جداً في السر . أنهن، حقاً، الأخوات المحجبات لكل الأشياء الكبيرة التي لا نراها . إنهن ،حقاً، أقرب قريبات اللامتناهي الذي يحيط بنا، وهن، وحدهن، ما زلن يعرفن كيف يبتسمن له بالجمال المألوف للطفل الذي لا يخاف من أبيه . إنهن يحتفظن، هنا على الأرض ، بملح نفسك النقي كجوهرة سماوية وغير مفيدة . وإذا ذهبن، فإن الروح تسود وحدها في صحراء . إنهم لا يزلن الانفعالات الإلهية للأيام الأولى، وجذورهن تمتد، بصورة أكثر مباشرة بكثير من جذورنا، في كل ما لم يكن له، قط، حدود . أرثي حقاً، للذين يشكون منهن لأنهم لا يعلمون في أية مرتفعات توجد القبل الحقيقية . ومع ذلك، فكم يظهرن شيئاً صغيراً عندما ينظر الرجال اليهن وهم يمرون . إنهم يرونهن يتململن في أعماق مساكنهم الصغيرة . هذه تنحني قليلاً، هناك الأخرى تنتحب، وثالثة تغني، والأخيرة تطرز ... وما من أحد يفهم ماذا يفعلن ! .. إنهم يأتون لزيارتهن كما تزار أشياء تبتسم . إنهم لايقتربون منهن الا بروح متربصة، ولا تستطيع النفس أن تدخل الا في أكبر المصادفات . يسألون بريبة، لا يقلن لهم شيئاً لأنهن يعلمن من قبل، وها هم يرحلون وهم يهزون أكتافهم، مقتنعين بأنهن لا يفهمن ... الا أن الشاعر الذي هو على صواب دائماً، يجيبنا قائلاً : «وما حاجتهن الى فهم هذا، ما حاجة هذه النفوس السعيدة التي اختارت أفضل نصيب والتي لا تشع، مثل لهب حب نقي في هذا العالم الأرضي،

الا في قمة الهياكل أو على ذروة سفن ضائعة، علامة على النار السماوية التي تغمر كل الأشياء، ما حاجة هذه النفوس الى الفهم ؟ غالباً جداً ما يفاجىء هؤلاء الأطفال الذين يحبون، في ساعات مقدسة، أسراراً رائعة للطبيعة ويكشفون عنها ببراءة لا شعورية . العالم يقتفي أثرهن ليجمع كل الجواهر التي زرعنها في براءتهن وفرحهن على الطرقات . الشاعر الذي يحس بما يشعرن به يقرّ بالفضل لحبهن ويسعى، بأغانيه، الى نقل هذا الحب، بذرة العصر الذهبي، الى أزمنة أخرى وقارات أخرى .. ذلك أن ما قاله صوفيون ينطبق، خاصة، على النساء اللواتي حافظن، حتى الآن، على المعنى الروحي في أرضنا .

* * *

عدد كبير من المؤلفات أجمل، بانتظام من كتاب رويسبروك الرائع هذا . وأن عدداً كبيراً بين الصوفيين أنجع وأنسب :

سويدنبرغ ونوفاليس بين عديدين . ومن المحتمل جداً، أن لا تلبي كتاباته الا نادراً حاجات اليوم . ومن جهة أخرى، أعرف قليلاً من المؤلفين أكثر خرقاً منه . فهو يضيع، في بعض البرهات، في صبيانيات غريبة والعشرون فصلاً الأولى من «زينة الأعراس الروحية» لا تحتوي على الرغم من كونها تحضيراً ربما كان ضرورياً، سوى على مواضعات فاترة وبسيطة . ليس فيه، خارجياً، أي نظام، أي منطق سكولاستيكي . وغالباً ما يكرر نفسه ويبدو، أحياناً، متناقضاً مع نفسه . وهو يجمع بين جهل طفل وعلم شخص قد يكون عائداً من الموت . وهو ذو تركيب تشنجي للجمل جعلني، أكثر من مرة، أتصبب عرقاً . إنه يدخل صورة وينساها، بل هو يستخدم عدداً من الصور التي لا تحقق، وهذه الظاهرة، غير السوية في كتاب نية حسنة، لا يمكن أن يفسر الا بارتباكه أو بعجلته الخارقة . إنه يجهل معظم مصطنعات الكلام ولا يستطيع الحديث الا عما لا يوصف . وهو يجهل كل عادات الفكر الفلسفي ومهاراته وموارده تقريباً، وهو يلتزم بعدم التفكير الا فيما لا يقبل

التفكير فيه . وعندما يحدثنا عن حديقته الديرية، يجد مشقة في أن يقول لنا ما يكفي عما يجري . إنه يكتب عند ذلك، كطفل . وهو يشرع في إعلامنا بما يجري لدى الله، ويكتب صفحات لم يكن أفلاطون يستطيع أن يكتبها . وهناك في كل الجهات، عدم تناسب هائل بين العلم والجهل، بين القوة والرغبة . لا ينبغي أن نتوقع عملاً أدبياً : فلن تلحظوا شيئاً سوى الطيران المتشنج لنسر ثمل، أعمى ومدمى فوق ذرى ثلجية . وسوف أضيف كلمة أخيرة بصفة تحذير أخوي . لقد اتفق لي أن قرأت مؤلفات تبدو عويصة جداً : «التلاميذ في سايس» و «النبذات»، ، لنوڤاليس «الترجمات الأدبية» و «الصديق» لصموئيل تايلور كولريدج، «تيموثاوس» لأفلاطون، «التساعيات» لأفلوطين، «الأسماء الالهية» لسان ديتيس الهوايتي و«الفجر» للصوفي الألماني جاكوب پوم الذي يوجد بينه وبين مؤلفنا أكثر من وجه شبه مثلاً . لا أجرؤ على القول إن مؤلفات رويسبروك أشد صعوبة من هذه المؤلفات، ولكننا لا نغفر لها هذه الصعوبة عن طيبة خاطر، لأن الأمر يدور هنا حول مجهول لا نثق به منذ البداية . كان يبدو لي ضرورياً، أن أحذر بصدق الكسالى على عتبة هذا المعبد الذي لا هندسة له . ذلك أن هذه الترجمة لم تحقق الا لإرضاء بعض الأفلاطونيين . أعتقد أن كل الذين لم يعيشوا في حميمية أفلاطون وأفلاطونيي الاسكندرية الجدد لن يمضوا بعيداً في هذه القراءة . سوف يظنون أنهم يدخلون في الفراغ، سوف يتكون لديهم إحساس بسقوط مطرد في هوة دون قرار، بين صخور سوداء وملساء . لا يوجد في هذا الكتاب هواء ولا نور عاديان، وهذه إقامة روحية، لا يتحملها من لم يتهيؤوا لها . لا ينبغي دخوله عن

فضول أدبي، فلا تخف فيه، ونباتيو الصورة لن يجدوا فيه زهوراً أكثر مما يجدونه على أطواف القطب الجليدية . أقول لهم إن هذه صحراء لا حدود لها، سوف يموتون، فيها، من الظمأ . سوف يجدون فيه القليل جداً من العبارات التي يمكن أن تقع عليها اليد للاعجاب بها على طريقة المتأدبين . إنها نفثات من لهب أو كتل من جليد . لا تذهبوا للبحث عن ورود في ايسلاندا . يمكن لتويج ما أن ينتظر بين جبلين جليديين، وهناك فعلاً، انفجارات فريدة، تعابير مجهولة، مشابه غريبة، ولكنها لن تسدد ثمن الزمن الضائع في المجيء لقطفها من هذه المسافة . ينبغي للمرء أن يكون، قبل دخوله هنا، في حالة فلسفية مختلفة عن الحالة العادية اختلاف حالة اليقظة عن حالة النوم . ويبدو أن بورفير قد كتب، في «المبادىء العامة لنظرية المفهومات»، أفضل تحذير يوضع في رأس هذا الكتاب : «بالذكاء، يقال كثير من الأشياء عن المبدأ الذي هو أعلى من الذكاء . ولكننا نحدسه بغياب للفكر أفضل بكثير مما نحدسه بالتفكير .وأمر هذه الفكرة مثل أمر فكرة النوم التي يجري الحديث عنها الى حد ما في حالة اليقظة والتي لا تكتسب معرفتها وإدراكها الا بالنوم . وبالفعل، فالشبيه لا يعرف الا بشبيهه، وشرط كل معرفة هو أن تصبح الذات شبيهة بالموضوع» . وأنا أكرر أن من الصعب جداً فهم هذا دون تحضير، وأعتقد أن قسماً كبيراً من هذه الصوفية سيبدو لنا، على الرغم من التحضير، نظرياً خالصاً، و أن معظم تجارب السيكولوجيا فوق الطبيعية، هذه لن يفهم من جانبنا الا بوصفنا مشاهدين . ان التخيل الفلسفي قدرة تربوية بطيئة جداً . نحن هنا، فجأة، عند تخوم الفكر البشري وما وراء دائرة الروح القطبية بكثير.البرد هنا شديد، والظلام

دامس جداً، ومع ذلك، فلن تجدوا شيئاً خلاف لهب ونور . ولكن هذا النور وهذا اللهب، بالنسبة للذين يصلون دون أن تكون نفوسهم قد تدربت على هذه الادراكات الجديدة، تكون مظلمة وباردة بالقدر الذي تكون عليه لو كانت مصورة . الأمر يدور هنا حول أضبط العلوم، يدور حول اجتياز أكثر رؤوس الإلهي وعورة وأقلها قابلية للسكن . «اعرف نفسك بنفسك» وشمس منتصف الليل تسود على البحر المتلاطم الأمواج حيث تمتزج سيكولوجية الانسان بسيكولوجية الله . من المهم أن نتذكر ذلك دون انقطاع . الأمر يدور هنا حول علم عميق جداً، ولا يدور حول حلم . الأحلام ليست إجماعية، ليس للأحلام جذور، في حين أن الزهرة الميتافيزيقية الالهية المتوهجة، المتفتحة هنا، جذورها الغامضة في فارس والهند، في مصر واليونان . ومع ذلك تبدو غير واعية كزهرة وتجهل جذورها . لسوء الحظ، من المستحيل علينا، تقريباً، أن نضع ذواتنا في موقع النفس التي تصورت ،دون جهد، هذا العلم . فلا نستطيع ملاحظته من الداخل وإعادة إنتاجه في أنفسنا . فينقصنا ما قد يسميه أمرسون «التلقائية المركزية» نفسها . ولم نعد نستطيع أن نحول هذه الأفكار الى جوهرنا الخاص، وكل ما نستطيعه هو الموافقة، من الخارج، على تجاربها المدهشة التي لا تقع إلا في متناول عدد صغير جداً من النفوس في مدة نظام كوني . يقول أفلوطين : «ليس من المشروع التساؤل عن المكان الذي يأتي منه هذا العلم الحدسي كما لو كان شيئاً تابعاً للمكان والحركة . ذلك أنه لا يقترب من هنا ولا ينطلق من هناك ليصل الى مكان آخر، بل إنه يظهر أو لا يظهر، بحيث لا ينبغي ملاحقته لاكتشاف ينابيعه السرية، بل يجب أن ننتظر بصمت الى أن يشع، فجأة، علينا مهيئاً إيانا للمشهد

المقدس، كما تنتظر العين، بصبر، شروق الشمس» . ويضيف، في مكان آخر، قائلاً : «ليس بالخيال ولا بالمحاكمة، المرغمة، فضلاً عن ذلك، على أن تستخلص مبادئها بنفسها، نتمثل المفهومات(أي ما هو فوق)، بل بالقدرة التي نملكها على تأملها، وهي قدرة تسمح لنا بأن نتحدث عنها هنا، تحت . فنحن نراها، إذن، بايقاظنا في ذاوتنا، هنا على الأرض، القوة نفسها، التي يجب أن نوقظها في أنفسنا عندما نكون في العالم المفهوم . فنحن نشبه رجلاً يلمح بنظرته، وهو يتسلق قمة صخرة، الأشياء التي لا يراها من لم يصعدوا معه» . لكن، على الرغم من أن كل الكائنات، من الحجر والنبتة حتى الانسان، تأملات، فإنها تأملات لا شعورية، ويصعب جداً علينا أن نلقى في أنفسنا ذكرى ما عن الفعالية السابقة للقدرة الميتة . نحن نشبه، هنا، العين في الصورة الأفلاطونية الجديدة : «إنها تبتعد عن النور لترى الظلمات، وبذلك بالذات لا ترى، لأنها لا تستطيع أن ترى الظلمات مع النور . ومع ذلك، فإنها لا ترى دونه . وبهذه الصورة ، وبقدر ما لا ترى، ترى الظلمات بقدر ما هي قادرة، بصورة طبيعية، على رؤيتها» .

أعرف الحكم الذي سيصدره معظم الناس على هذا الكتاب . سوف يرون فيه عمل راهب مهلوس، متوحد حائر وناسك ثمل بالصوم وتضنيه الحمى . سوف يرون فيه حلماً غريباً وأسود تجتازه بروق كبرى، ولاشيء غير ذلك . إنها الفكرة العادية التي تكوّن عن الصوفيين، وغالباً جداً ما ننسى أن كل موثوق موجود فيهم وحدهم . وفضلاً عن ذلك، فإذا كان صحيحاً أن كل إنسان شكسبير في أحلامه، فيجب أن نتساءل عما إذا لم يكن كل إنسان، في حياته، صوفياً لا يعلن عنه، الف مرة أكثر

استعلائية من كل الذين حدّوا أنفسهم بالكلام . ما هو عمل الانسان الذي لا يكون دافعه الأخير روحياً ؟ وعين العاشق أو الأم أليست الف مرة أصعب وأشد انغلاقاً وروحانية من هذا الكتاب، المسكين والقابل للتفسير بعد كل شيء ككل الكتب التي ليست أبداً، سوى أسرار ميتة لا يعود أفقها يتجدد ؟ إذا لم نفهم هذا، فربما كان ذلك لأننا لم نعد نفهم شيئاً . ولكن بعضهم إذا عدنا الى مؤلفنا سيعرفون دون عناء، أن راهبنا، بعيداً عن كونه قد جن بفعل الجوع والعزلة والحمى، كان يمتلك على العكس من ذلك، أحد أحكم وأضبط وأبرع ما وجد من أجهزة فلسفية . كان يعيش، كما قيل لنا، في كوخه في غروننديل، وسط غابة سوافي . كان عند افتتاح واحد من أكثر قرون العصر الوسيط وحشية : القرن الرابع عشر . كان يجهل اليونانية واللاتينية احتمالاً . كان وحيداً وفقيراً . إلا أن روحه الجاهلة والبسيطة كانت تستقبل، في عمق هذه الغابة البلجيكية، دون أن تعلم، الانعكاسات المبهرة لكل القمم المتوحدة والسرية للفكر البشري . كان يعرف، على غير علم منه، أفلاطونية اليونان، ويعرف صوفية فارس وبراهمانية الهند وبوذية التيبت . وكان جهله الرائع يلقى حكمة القرون الدفينة ويتنبأ بعلوم القرون التي لم تولد بعد . أستطيع أن أستشهد بصفحات كاملة من أفلاطون أو أفلوطين أو بورفير أو كتب الزند والغنوصيين والقبلانيين نلقى جوهرها الإلهي، تقريباً، سليماً في كتابات الكاهن الفلمنكي البسيط . هناك تطابقات غريبة وإجماعات مقلقة . وهناك ما هو أكثر : فيبدو أنه قد افترض، في بعض البرهات، بصورة مضبوطة، معظم أسلافه المجهولين فكما أن أفلوطين قد بدأ رحلته القاسية عند ملتقى الطرق الذي توقف عنده

أفلاطون وجثا، يمكن أن يقال إن رويسبروك لم يوقظ، بعد راحة عدة قرون، هذا النوع من الفكر، لأن هذا الفكر لا يغفو، بل هذا النوع من الكلام الذي نام على الجبال التي كان أفلوطين المبهور قد هجره، فيها، واضعاً يديه على عينيه، كما لو كان أمام حريق هائل .

ولكن عضوية تفكيرهما تختلف اختلافاً غريباً . فأفلاطون وأفلوطين هما، قبل كل شيء، أميرا الديالكتيكية . فهما يصلان الى الروحية بالعلم والمحاكمة . وهما يستعملان نفسهما الاستدلالية ويبدوان مرتابين بنفسهما الحدسية أو التأملية . والمحاكمة تتأمل نفسها في مرآة المحاكمة وتبذل جهدها في أن تبقى غير مبالية بكل الانعكاسات الأخرى . وهي تتابع جريانها كنهر ماء عذب وسط البحر مع الاحساس المسبق بامتصاص قادم . أما هنا، فنحن نلقى، من جديد، على العكس من ذلك، عادات الفكر الآسيوي . فالنفس الحدسية تبقى، وحدها، فوق التطهير الاستدلالي للأفكار والكلمات . هل سقطت دعامات الحلم ؟ هل ذلك أقل موثوقية ؟ لا أحد يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال . فمرآة الذكاء البشري مجهولة كلياً في هذا الكتاب . إلا ان هناك مرآة أخرى، أكثر قتامة وعمقاً نخفيها في أعمق أعماق كينونتنا . فلا شيء يرى بصورة متميزة. والكلمات لا تستطيع أن تبقى على سطحها . والذكاء يحطمها ولو عكست، فيه، لحظة، نورها الدنيوي . ولكن شيئاً آخر يظهر، فيها، بين حين وآخر . أهو النفس؟ أهو الله نفسه ؟ أو كلاهما معاً ؟ لن نعرف ذلك أبداً . ومع ذلك، فإن هذه الظهورات غير المرئية تقريباً هي السيدة الوحيدة والفعلية في حياة أكثرنا تشككاً وأكثرنا عمى . هنا، لن تلمحوا سوى التموجات المبهمة لهذه المرآة. وبما

أن كنزها لا ينضب، فإن هذه التموجات لا تشبه أياً من التي أحسسنا بها في أنفسنا . وعلى الرغم من كل شيء، فإن تأكدها يبدو خارقاً . ومن أجل ذلك، لا أعرف شيئاً أرهب من هذا الكتاب الحسن القصد . ليس في العالم مدلول سيكولوجي، خبرة ميتافيزيكية، حدس صوفي، مهما تكن عويصة، مهما تكن عميقة، وغير متوقعة . لا يمكننا، إذا لزم الأمر، أن نعيد إنتاجها وإحيائها، لحظة، في أنفسنا من أجل أن نتأكد من هويتها البشرية . ولكننا، هنا، شبيهون بالأب الأعمى الذي لم يعد يستطيع تذكر وجوه أبنائه . ولكنه ليس لأي من هذه الأفكار الوجه البنوي والأخوي لفكرة عن الأرض . يبدو أننا فقدنا تجربة الله . ومع ذلك ، فكل شيء يؤكد أننا لم ندخل بيت الأحلام . هل يجب أن نهتف، مع نوفاليس، أن الزمن لم يعد ذاك الذي كانت، فيه، روح الله مفهومة وأن معنى العالم ضاع الى الأبد ؟ إن كل شيء كان في السابق، ظهوراً للروح ولكننا لا نرى، اليوم، سوى انعكاسات ميتة لم نعد نفهمها وأننا نعيش، حصراً، على ثمار أزمنة أفضل ؟

أعتقد أنه يجب أن نعترف، بتواضع، بأن مفتاح هذا الكتاب لا يوجد على الدروب العادية للروح البشرية . هذا المفتاح ليس مخصصاً لأبواب دنيوية ويجب استحقاقه بابتعادنا قدر الامكان عن الأرض . ومرشد واحد ما يزال يصادف في هذه التقاطعات المتوحدة ويمكن أن يعطينا آخر الإرشادات نحو جزر النار الغامضة هذه وجزر ثلج التجريد والحب . وأفلوطين هو الذي بذل جهده ليحلل، بالذكاء البشري، القدرة الإلهية التي تسود هنا . لقد عانى ما نسميه، بكلمة لا تفسر شيئاً، النشوات نفسها التي ليست، في الحقيقة، سوى بداية الاكتشاف الكامل

لكينونتنا . ووسط اضطراباتها وظلماتها، لم يغمض، لحظة، العين المسائلة لعالم النفس الذي يسعى الى تبين أغرب ظواهر نفسه . وهو، على، هذا النحو، آخر مكسر للأمواج نستطيع منه أن نفهم، قليلاً، موجات هذا البحر المظلم وأفقه . وهو يجهد بتمديد دروب الذكاء العادي حتى قلب هذه التخريبات . ومن أجل ذلك، يجب العودة اليه باستمرار لأنه الصوفي التحليلي الوحيد . ولهؤلاء الذين قد تغريهم هذه الرحلات الرائعة أريد أن أقدم، هنا، إحدى الصفحات التي حاول، فيها، تفسير عضوية قدرة الاستبطان الإلهية هذه . فقد قال :

«في الحدس العقلي، يرى الذكاء الأشياء المفهومة بواسطة النور الذي ينشرها عليها الأول، وبرؤية هذه الأشياء، يرى ،حقاً، النور المفهوم . ولكن، بما أنه يولي انتباهه للأشياء المضاءة فهو لا يرى، بوضوح كاف، المبدأ الذي يضيئها . وإذا نسي، على العكس من ذلك، الأشياء التي يراها من أجل أن لا يتأمل الا الضياء الذي يجعلها مرئية، فإنه يرى النور نفسه ومبدأ النور . ولكن الذكاء لا يتأمل النور المفهوم من خارج ذاته . وهو يشبه، إذ ذاك العين التي يفاجئها، دون أن تتأمل نوراً خارجياً وغريباً . بل حتى قبل أن تلمحه، الضياء الخاص بها، أو شعاع، ينبثق منها نفسها ويظهر لها وسط الظلمات . والأمر هو على الغرار نفسه عندما تغمض العين جفنيها، من أجل، أن لا ترى أشياء أخرى، وتسحب من ذاتها نورها أوتلمح، وقد ضغطت عليها اليد، النور، الذي هو فيها . وعند ذلك، ترى، دون أن ترى شيئاً من الخارج، بل ترى أكثر من أية برهة أخرى لأنها ترى النور . والأشياء الأخرى التي كانت تراها سابقاً، لم تكن، على الرغم من أنها مضيئة، النور نفسه . وكذلك،

فعندما يغمض الذكاء عينه، نوعاً ما، عن الأشياء الأخرى ويتمركز على ذاته، بعدم رؤيته شيئاً، فإنه لا يرى نوراً غريباً يشع في أشكال غريبة، بل نوره الخاص الذي يشع، فجأة، داخلياً بضياء نقي» .

ويقول لنا أيضاً : : «يجب على النفس التي تدرس الله أن تكوّن فكرة عنه بالسعي الى معرفته، ويجب، بعد ذلك، وقد عرفت الشيء الكبير الذي تريد أن تتحد معه واقتنعت بأنها ستجد الغبطة في هذا الاتحاد، يجب أن تغوص في أعماق الألوهية الى أن تصبح، هي نفسها، موضوع تأمل وتشع بضياء التصورات التي يقع ينبوعها هناك، في السماء، بدلاً من أن تتأمل ذاتها، من أن تتأمل العالم المفهوم» .

هذا ،تقريباً، كل ما تستطيع الحكمة البشرية أن تقوله لنا هنا . إنه، تقريباً، كل ما استطاع أمير الميتافيزيكيات المتعالية أن يعبر عنه . أما بالنسبة للتفسيرات الأخرى، فيجب أن نجدها في أنفسنا، في الأعماق التي يفنى، فيها، كل تفسير في التعبير عنه . ذلك أن السماء والأرض ليستا، وحدهما، اللتين توجد فيهما أشياء أكثر مما يمكن أن تحتوي عليها كل الفلسفات، بل توجد خاصة، في ذواتنا، ومنذ أن لا نعود مرغمين على صياغة ما هو غامض فينا، نكون أعمق من كل ما كتب وأكبر من كل ما هو موجود .

وإذا كنت، الآن، قد ترجمت هذا، فذلك، فقط، لأني، أعتقد أن كتابات الصوفيين هي أنقى ماسات كنز البشرية العجيب، على الرغم من أن الترجمة ربما لم تكن مفيدة لأنه يبدو أن التجربة قد أثبتت أنه لا يهم كثيراً أن يتحقق سرّ تجسد فكرة في الأضواء أو في الظلمات، فيكفي أنه قد حدث . ولكن ،مهما يكن عليه الأمر، فإن للحقائق

الروحية على الحقائق العادية امتيازاً غريباً، فهي لا تستطيع أن تشيخ ولا أن تموت . ما من حقيقة لا تكون، وقد نزلت الى العالم ذات صباح، رائعة في قوتها وفتوتها ومغطاة بالندى النضر والرائع الخاص بالأشياء التي لم تقل بعد . تجولوا، اليوم، في مستوصفات النفس البشرية التي تأتي جميعها لتموت فيها كل يوم، فلن تجدوا، فيها، فكرة روحية واحدة . إنها لها مناعة ملائكة سويد نبورغ التي تتقدم، باستمرار نحو ربيع شبابها، بحيث أن أكبر الملائكة عمراً تبدو أفتاها، وأنها تأتي من الهند أو اليونان أو الشمال . فليس لها وطن ولا عيد ميلاد وتبدو، حيثما نلقاها، جامدة وحاليّة كالله نفسه . العمل لا يشيخ الا بمعدل لا روحانيته، ومن أجل ذلك، لا يحمل هذا الكتاب أي تاريخ . أعلم أنه أسود بصورة لاسوية، ولكنني أعتقد أن المؤلف الصادق والحسن النية لا يكون، قط، غامضاً بالمعنى الأزلي للكلمة، لأنه يفهم نفسه بنفسه دائماً وإلى ما وراء ما يقوله بشكل غير محدود . الأفكار المصطنعة، وحدها، هي التي ترتفع الى ظلمات حقيقية، ولا تزدهر إلا في العصور الأدبية، وفي النية السيئة للقرون الفائقة الوعي، عندما تبقى فكرة الكاتب دون ما يعبر عنه . هنا كان الظل الخصب لغاية، وهنا ظلام قبر لا تفقس، فيه، سوى طفيليات قاتمة . ويجب أن يحسب المرء، أيضاً حساباً لهذا العالم المجهول الذي يجب أن تضيئه جمله من خلال زجاج الكلمات والأفكار المزدوج والفقير . لقد اخترعت الكلمات، كما لوحظ، لاستعمالات الحياة العادية، وهي بائسة، قلقة، ومدهوشة كمتشردين حول عرش، عندما تقودها نفس ملكية ما، بين وقت وآخر، الى مكان آخر . ومن ناحية أخرى، هل الفكرة، قط، الصورة المضبوطة لشيء لا

أعلمه ولدها ؟ أليست دائماً ظل صراع نراه فيها، شبيه بصراع يعقوب مع الملاك، ومبهمة بقدر التناسب بين حجم النفس والملاك ؟ يقول كارليل: «بئس الأمر لنا إذا لم يكن فينا ما نستطيع التعبير عنه، وعرضه للرؤية !» أعلم أن على هذه الصفحات الظل الذي حملته أشياء لا نتذكر أننا رأيناها ولا يتوقف الراهب عن توضيح استعمالها ولن نتعرف عليها الا عندما سنرى الأشياء نفسها في الجانب الآخر من الحياة، ولكن هذا جعلنا، في انتظار ذلك، ننظر الى بعيد، وهذا كثير . وأعلم، أيضاً أن العديد من هذه العبارات يطفو كقطع جليد شفاف على بحر صامت تقريباً، ولكنها موجودة . لقد كانت مفصولة عن الحياة، وهذا يكفي . وأعلم، أخيراً، أن النبتات الغريبة التي زرعها، على ذرى الروح محاطة بغيوم خاصة، ولكن هذه الغيوم لا تسيء الا للذين ينظرون اليها من تحت، وإذا تجرأ المرء على الصعود، فسوف يرى أنها جوّ هذه النبتات نفسه، والوحيد الذي تستطيع أن تتفتح فيه، في مأمن من الوجود . ذلك أنها نبتة من الدقة، بحيث تكاد لا تتميز عن الصمت الذي استمدت منه عصاراتها وحيث تبدو ميالة الى الانحلال . وفضلاً عن ذلك، فإن كل هذا المؤلف يشبه عدسة مكبرة توضع على الظلمات والصمت . لا نميز، أحياناً، على الفور، طرف الأفكار التي ما زالت تشارك فيه . إنه لا مرئي يتراءى أحياناً وينبغي بديهياً شيء من الانتباه لترقب عوداته . ليس هذا الكتاب أبعد مما ينبغي عنا . إنه، احتمالاً، في مركز إنسانيتنا نفسه، ولكننا، نحن، البعيدون أكثر مما ينبغي عن هذا الكتاب . وإذا بدا لنا محيطاً كالصحراء، وإذا كان أسى الحب الإلهي يبدو، فيه مخيفاً، وكان الظمأ الى القمم لا يطاق، فليس المؤلف

هو المفرط القدم، بل ربما كنا، نحن، المفرطين في الشيخوخة، حزانى ودون شجاعة كشيوخ حول طفل . وأن صوفياً آخر، أفلوطين، الصوفي الوثني، هو المصيب، احتمالاً، ضدنا، عندما يقول، للذين يشكون من عدم رؤية شيء على مرتفعات الاستبطان : «يجب جعل عضو البصر، أولاً، مماثلاً للموضوع الذي يريد تأمله وشبيهاً به . لم تكن العين لترى الشمس أبداً، لولم تكن قد اتخذت، أولاً، شكل الشمس . كذلك، فإن النفس لن تستطيع رؤية الجمال، إذا لم تصبح، أولاً، جميلة هي نفسها، على كل إنسان أن يبدأ بجعل نفسه جميلاً وإلهياً ليحصل على رؤية الجميل والألوهية» .

* * *

إمرسون

يقول نوڤاليس : «شيء واحد يهم هو البحث عن أنانا المتعالية» . هذه الأنا نلمحها، أحياناً، في أقوال الله، في أقوال الشعراء والحكماء، في قاع بعض الأفراح وبعض الآلام، في النوم، في الحب والأمراض، وفي ظروف غير متوقعة، حيث تشير لنا، من بعيد، وترينا، بإصبعها، علاقاتنا مع الكون . بعض الحكماء لم يعملوا إلا على هذا البحث . وكتبوا هذه الكتب التي لا يسود فيها إلا الخارق للطبيعة . يقول مؤلفنا : «ما الذي له قيمة في الكتب إن لم يكن المتعالي والخارق للطبيعة ؟» كانوا كرسامين يجهدون في التقاط شهب في الظلمات . بعضهم رسم صوراً مجردة، كبيرة جداً، ولكنها غير واضحة تقريباً . وتوصل الآخرون الى تثبيت موقف أو حركة عادية للحياة العليا . تخيل عديدون كائنات غريبة . لا يوجد عدد كبير من هذه الصور . وهي لا تتشابه أبداً . بعضها جميل، جداً، والذين لم يروها شبيهون، كل حياتهم، برجال لم يخرجوا، قط، نحو وسط النهار . وهناك منها ما تكون خطوطها أنقى من خطوط السماء . وهذه الصور تبدو لنا، إذ ذاك، من البعد بحيث نجهل ما إذا كانت تعيش ، أو ما إذا كانت قد نقلت على غرارنا . إنها

عمل روحانيين خالصين، ولا يتعرف، فيها، الانسان على نفسه بعد . وحدثنا آخرون، يسمون شعراء، بصورة غير مباشرة، عن هذه الأشياء وأعطتنا طبقة أخرى من المفكرين الذين رفعوا اسطورة السنتورس درجة عن هذه الهوية الخفية صورة أقرب الى الفهم بمزجها بين خطوط أنانا الظاهرة وخطوط أنانا العليا . وجه نفسنا الإلهية يبتسم، فيها، في بعض الأحيان، من فوق شقيقتها، النفس البشرية الميالة الى شؤون الفكر البسيطة . وهذه الابتسامة التي تجعلنا نلمح، بصورة عابرة، كل ما هو وراء الفكر هي المهمة، وحدها، في أعمال البشر .

ليسوا عديدين أولئك الذين بينوا لنا أن الانسان أكبر وأعمق من الانسان ومن توصلوا، على هذا النحو، الى رؤية بعض التلميحات الأزلية التي نصادفها كل لحظة من الحياة في حركة، في إشارة، في نظرة، في كلمة، في صمت وفي الأحداث التي تحيط بنا . علم العظمة البشرية أغرب العلوم . لا أحد بين البشر يجهل ذلك، ولكن جميعهم، تقريباً، لا يعلمون أنهم يملكونه . الطفل الذي يصادفني لن يكون قادراً على أن يقول لأمه ماذا رأى، ومع ذلك، فهو، منذ أن لمست عينه حضوري، يعرف كل ما أنا عليه، ما كنته، كل ما سوف أكونه، مثل أخي وأفضل مني، أنا نفسي، بثلاث مرات . إنه يعرفني مباشرة في الماضي والمستقبل . في هذا العالم وفي العوالم الأخرى، وعيناه تكشفان لي، بدورهما، الدور الذي ألعبه في الكون وفي الأبدية . النفسان المعصومتان تبادلتا الحكم، ومنذ أن قبلت نظرته نظرتي، وجهي، موقفي وكل اللامتناهي الذي يحيط بها والتي هي المعبرة عنه . إنه يعرف ماذا سيفهم، وعلى الرغم من أنه لا يميز، بعد، تاج امبراطور عن خرج متسول .

فقد عرفني، برهة. بضبط معادل لضبط معرفة الله لي .

صحيح أننا نتصرف فعلاً مثل آلهة، وأن كل حياتنا تجري وسط موثوقات ومؤكدات لا متناهية . ولكننا عميان نلعب بحجارة صغيرة طيلة الطرقات . وهذا الرجل الذي يقرع بابي، ينفق في البرهة التي يحييني فيها، كنوزاً روحية في روعة كنوز الأمير الذي قد أكون انتزعته من الموت . أفتح له، وفي لحظة يرى عند قدميه، كما لو كان من أعلى برج، كل ما جرى بين نفسين . الفلاحة التي أسألها عن الطريق، أحكم عليها بالقدر نفسه من العمق الذي كان من شأني أن أبديه لو كنت أطلب منها حياة أمي، وروحها حدثتني بالحميمية نفسها التي تحدثني بها خطيبتي . لقد أعادت الصعود بعجلة، حتى أكبر الأسرار قبل أن تجيبني . ثم قالت لي، بهدوء، عارفة من أكون فجأة، انه ينبغي أن أسلك، يساراً، درب القرية . إذا قضيت ساعة وسط جمهور، فإني حكمت الف مرة، دون أن أقول شيئاً ودون أن أفكر في ذلك لحظة، على الأحياء والموتى، وأيّ من هذه الأحكام سيبطل في اليوم الأخير ؟ في هذه الغرفة خمسة أو ستة كائنات تتحدث عن المطر والطقس الجميل . ولكن لست نفوس، فوق هذه المحادثة البائسة، حديثاً لن تستطيع أية حكمة بشرية أن تقترب منه دون خطر . وعلى الرغم من أنها تتحدث من خلال نظراتها، أيديها، وجوهها وكل حضورها، فسوف تجهل، دائماً، ماذا قالت . الا أنه يجب أن ننتظر نهاية الحوار غير المفهوم، ومن أجل ذلك، يتملكها ما لا أدري من فرح مبهم في مللها، دن أن تعرف ما الذي يصغي، فيها، الى كل قوانين الحياة والموت والحب التي تجري كأنهار لا تدرك حول المنزل .

والأمر هو على هذا النحو في كل مكان ودائماً . نحن لا نعيش الا بموجب كينونتنا المتعالية التي تخرق أفعالها وأفكارها، في كل لحظة، الغلاف الذي يحيط بنا . سوف أرى، اليوم، صديقاً لم أره أبداً، لكني أعرف عمله وأعلم أن نفسه خارقة وأنه قضى حياته في أن يبديها بأضبط وجه ممكن بموجب واجب أنواع الذكاء العليا . أنا مفعم بأنواع القلق، وهذه ساعة رسمية . إنه يدخل، وكل التفسيرات التي أعطانا إياها خلال عدد كبير من السنوات تسقط رماداً لدى حركة الباب الذي ينفتح على حضوره . إنه ليس ما يظن أنه هو . إنه من طبيعة أخرى خلاف طبيعة أفكاره . ومرة أخرى، نتبين أن موفدي الروح غير أوفياء دائماً . لقد قال حول نفسه أشياء عميقة جداً، ولكني، في هذه اللحظة الصغيرة، التي تفصل بين النظرة التي تتوقف والنظرة التي تبتعد عرفت كل ما لن يستطيع، قط، أن يقوله وكل ما لن يستطيع إحياءه في روحه . إنه ملكي، منذ الآن، دون رجوع . في السابق ، كان يجمعنا الفكر . واليوم، يسلم شيئاً الف مرة أشد غموضاً كل واحد منا للآخر . منذ سنوات وسنوات كنا ننتظر هذه اللحظة، وها نحن نشعر بأن كل شيء عقيم، ومن أجل أن لا نخاف من الصمت، نحن الذين كنا مهيئين لأن يري أحدنا الآخر كنوزاً سرية ورائعة، نتحدث عن الساعة التي تدق أو الشمس التي تغيب من أجل أن نعطي نفسينا الوقت لتبادل الاعجاب والتعانق في صمت آخر لن تستطيع تمتمة الشفاه والفكر، بعد، أن تعكره .

في الحقيقة، نحن نعيش نفساً لنفس ونحن آلهة تجهل ذاتها . إذا كان من المستحيل علي، هذا المساء، أن أتحمل وحدتي، وإذا نزلت بين

الناس، فسوف يقولون لي إن العاصفة أتت على الاطاحة بجدرانهم وإن التجمدات الأخيرة أغلقت الميناء . هل جئت من أجل هذا ؟ ومع ذلك، فسوف أمضي أحياناً ونفسي راضية ومليئة بقوة وكنوز جديدة كما لو كنت قد أمضيت هذه الساعات مع أفلاطون وسقراط و مارك أوريل . ما كان يقوله فيهم لم يكن يسمع الى جانب ما كان يعلنه حضورهم، ويستحيل على الانسان أن لا يكون كبيراً وحرياً بالاعجاب . ما يفكر فيه الفكر ليست له أية أهمية الى جانب الحقيقة التي هي نحن والتي تتأكد في صمت . وإذا نزل، بعد خمسين سنة عزلة ، ابيكتيت وغوته والقديس بولس في جزيرتي، فإنهم لن يستطيعوا أن يقولوا لي إلا ما يقوله لي، في الوقت نفسه، وبصورة أكثر مباشرة، بحار مركبهم الصغير احتمالاً .

والحقيقة هي أن أغرب ما في الانسان هو رصانته وحكمته المخبوءة . فالأكثر عبثاً لا يضحك ، حقاً، بيننا ، وعلى الرغم من جهوده لا يتوصل الى إضاعة دقيقة لأن النفس البشرية متنبهة ولا تفعل شيئاً غير مفيد . الحياة رصينة، وفي أعماق كينونتنا ، نفسنا ، لم تبتسم بعد . ومن الناحية الأخرى لإثاراتنا اللاإرادية، نحن نعيش حياة مدهشة، ساكنة ونقية جداً وآمنة جداً تلمح اليها ، باستمرار ، الأيدي التي يمتد بعضها الى بعض، العيون التي تتفتح، النظرات التي تتلاقى . كل أعضائنا شريكة روحية لكائن أعلى، وليس إنساناً أبداً، إنها نفس عرفناها . لم أر هذا الفقير الذي يطلب الصدقة على درجات عتبتي، ولكني كنت ألمح شيئاً آخر : في عيوننا . كان مصيران متماثلان يتبادلان التحية والحب، وفي اللحظة التي مد ، فيها ،يده، انفرج باب المنزل الصغير لحظة على

البحر . يقول أمرسون : «في علاقاتي مع ابني، لا تنفعني اليونانية أو اللاتينية أو كل ما أعلم أو كل الذهب الذي أملكه . ما لدي من نفس هو، وحده، المهم . إذا كانت لي إرادة، فإنه يعارض إرادتي بإرادته، واحدة ضد أخرى، ويدع لي، إذا شئت عار التعسف في استعمال قوتي بضربه . أما إذا تخليت عن إرادتي، إذا تصرفت باسم النفس، طارحاً إياها كحكم بيننا، نحن الاثنين، فمن خلال عينيه الفتيتين تنظر النفس ذاتها، إنه يجل ويحب معي» .

الا أنه إذا كان صحيحاً أن آخرنا لا يستطيع أن يقوم بأدنى حركة دون أن يحسب حساباً للنفس وللممالك الروحية التي تسود فيها، فصحيح، أيضاً، أن أعقل الناس لا يفكر، أبداً تقريباً، باللانهائي الذي يحركه جفن ينفتح، رأس ينحني، يد تغلق . نحن نعيش بعيداً عن أنفسنا الى حد نجهل، معه، كل ما يجري في أفق كينونتنا تقريباً . نحن نهيم، عشوائياً، على وجوهنا في الوادي دون أن نرتاب في أن حركاتنا يعاد إنتاجها وتكتسب دلالتها في قمة الجبل، وينبغي أن يأتي أحد، أحياناً ليقول لنا : ارفعوا عيونكم، انظروا من أنتم . انظروا ماذا تفعلون ،لا نعيش هنا، فوق هو المكان الذي نحن فيه . هذه النظرة المتبادلة في الظل . هذه الأقوال التي لم يكن لها معنى في سفح الجبل، انظروا ماذا تصبح وماذا تعني وراء ثلج الذرى، وكيف تصل أيدينا التي نظنها بالغة الضعف والصغر الى الله دون أن نعلم .

بعضهم جاء ليربت، على هذا النحو، على أكتافنا مشيراً باصبعه الى ما يجري على جموديات السر . ليسوا كثيرين . هناك ثلاثة منهم أو أربعة، في هذا القرن . وهناك خمسة أو ستة في القرون الأخرى . وكل

ما استطاعوا أن يقولوه لنا ليس شيئاً بالقياس مع النظرة الى ما يجري والى ما لا تجهله نفوسنا . ولكن، ما أهمية ذلك ؟ ألسنا شبيهين برجل فقد عينيه في السنوات الأولى من طفولته ؟ لقد رأى مشهد الكائنات الذي لا يحصى . رأى الشمس والبحر والغابة . هذه الروائع موجودة الآن، في جوهره الى الأبد . وإذا تحدثتم عن هذا، فما الذي سوف يمكن أن تقولوه له، وماذا ستكون كلماتكم المسكينة الى جانب النور والعاصفة والفجر التي ما زالت تعيش في أعماق روحه وجسده ؟ إلا أنه سوف يصغي اليكم بفرح حار ومدهوش، وعلى الرغم من أنه يعرف كل شيء، ومن أن أقوالكم تمثل ما يعرفه بصورة أقل كمالاً مما يمثل كأس ماء نهراً كبيراً، فإن العبارات الصغيرة العاجزة التي تسقط من أفواه البشر سوف تضيء، لحظة، المحيط والنور والأوراق القاتمة التي كانت تنام وسط الظلمات تحت جفونه الميتة .

ربما كانت وجوه هذه «الأنا المتعالية»، التي يتحدث عنها نوفاليس لا تحصى، ولن يتوصل أي من الأخلاقيين الصوفيين الى دراسة الوجه نفسه . أن سويدنبرغ وباسكال ونوفاليس وهيلو وبضعة آخرين يفحصون علاقاتنا مع لا متناهٍ مجرد، دقيق وبعيد جداً . إنهم يقودوننا على جبال لا تبدو لنا قممها طبيعية وقابلة للسكنى، وغالباً ما نتنفس فيها بمشقة . إن غوته يصاحب نفوسنا على ضفاف بحر الصفاء . مارك أوريل يجلسها على منحدر الهضاب البشرية للطيبة الكاملة والمتعبة وتحت الأوراق البالغة الثقل للتسليم دون أمل . وكارليل الأخ الروحي لإمرسون الذي يحذرنا في هذا القرن، في الطرف الآخر من الوادي، يجعل البرهات البطولية الوحيدة في وجودنا تمر كالبروق على خلفية ظل وعاصفة لمجهول

ممسوخ باستمرار . إنه يقودنا كقطيع مذعور من العواصف نحو المراعي المجهولة والكبريتية . إنه يدفعنا الى أعمق الظلمات التي اكتشفهابفرح والتي تضيئها نجمة الأبطال المتناوبة والعنيفة وحدها، ويتخلى عنا فيها، بضحكة خبيثة لأعمال الأسرار الانتقامية الواسعة .

ولكن، هوذا، في الوقت نفسه، أمرسون الراعي الصباحي الصالح للمروج الشاحبة والخضراء لتفاؤل جديد، طبيعي وممتع . إنه لا يقودنا الى جهة الهوات، ولا يخرجنا من السور الأسري البسيط لأن الجمودية والبحر والثلوج الأبدية والقصر والاسطبل ومدفأة الفقير المطفأة وسرير المريض، كلها واقعة تحت السماء نفسها التي طهرتها القوى اللامتناهية نفسها .

جاء، بالنسبة للكثيرين، في البرهة التي كان يجب أن يأتي فيها، وفي اللحظة التي كانوا في حاجة مميتة الى تفسيرات جديدة . الساعات البطولية أقل مناسبة، وساعات نكران الذات لم تعد بعد . لم يبق لنا سوى الحياة اليومية، ومع ذلك، لا نستطيع أن نعيش دون عظمة . لقد أعطى معنى مقبولاً، تقريباً، لهذه الحياة التي لم يعد لها آفاق تقليدية وربما استطاع أن يبين لنا أنها على درجة من الغرابة والصمت والكبر تكفي لعدم الحاجة الى هدف آخر سواها . إنه لا يعرف عنها أكثر من الآخرين، ولكنه يؤكد بمزيد من الشجاعة، وهو يثق بالسر . يجب أن تعيشوا، أنتم، جميعاً الذين تعبرون أياماً وسنوات دون أفعال، دون أفكار، دون نور، لأن حياتكم، على الرغم من كل شيء، غير مفهومة وإلهية . يجب أن تعيشوا لأنه ليس لأحد الحق بتجنب الأحداث الروحية للأسابيع العادية . يجب أن تعيشوا لأنه ليس هناك ساعات دون

معجزات حميمة ودون دلالات لا توصف . يجب أن تعيشوا لأن ما من فعل، ما من كلمة، ما من حركة، تفلت من مطالب لا تفسر في عالم فيه أشياء كثيرة يجب أن تصنع وقليل من الأشياء التي يجب أن تعرف ..

لا توجد حياة كبيرة وحياة صغيرة، وليس لعمل ريغولوس أو ليوفيداس أية أهمية عندما أقارنه بلحظة من الحياة السرية لنفسي . كانت تستطيع أن تفعل ما فعلاه أو أن لا تفعله، هذه الأشياء لا تمسها . وربما كانت نفس ريغولوس، عندما عاد الى قرطاجة، على الدرجة نفسها من اللامبالاة والشرود لدى العامل الذي يمضي الى المصنع، إنها أبعد مما ينبغي عن كل أفعالنا، إنها أبعد مما ينبغي عن كل أفكارنا . إنها تعيش وحيدة، في أعماقنا، حياة لا تتحدث عنها، ومن الأعالي التي تسود فيها، لا يعود تنوع الحيوات يميز . نسير رازحين تحت ثقل نفوسنا ولا يوجد تناسب بيننا وبينها . ربما تكون لا تفكر، أبداً، بما نفعل، وهذا يقرأ على وجوهنا : لو كان يمكن سؤال ذكاء عالم آخر عن التعبير التركيبي لوجوه البشر، فسوف يجيب، دون شك، بعد أن يكون قد رآها في أفراحها، في آلامها وضروب قلقها : يبدو عليها أنها تفكر في شيء آخر . كونوا كباراً، كونوا حكماء وبلغاء . نفس الفقير الذي يمد يده عند زاوية الجسر لن تكون غيورة، ولكن نفوسكم ربما ستحسدها على صمتها . البطل يحتاج الى قبول الانسان العادي، ولكن الانسان العادي لا يطلب قبول البطل . ويتابع حياته دون قلق كذاك الذي يملك كل كنوزه في مكان أمين . يقول إمرسون : «عندما يتكلم سقراط، لا يحس ليزيس ومينيكسينوس بأي خجل من صمتهما . فهما، أيضاً، كبيران . وسقراط

يرجع اليهما ويحبهما وهو يتكلم، لأن كل إنسان ينطوي على الحقيقة نفسها التي ينطق بها إنسان بليغ، وهو هذه الحقيقة . ولكن هذه الحقيقة تبدو أقل وجوداً في الانسان البليغ لكونه يستطيع أن ينطق بها بالذات، ومن أجل ذلك يلتفت الى هؤلاء الصامتين الجديرين بالاعجاب بإجلال واحترام أكبر » .

الانسان نهم الى التفسيرات، يحب أن تبين له حياته، إنه يفرح حين يجد في مكان ما التفسير المضبوط لحركة صغيرة قام بها منذ خمس وعشرين سنة . هنا، لا توجد حركة صغيرة، هناك معظم مواقف حياتنا اليومية . لن تجدوا، فيها، الطابع الأزلي لفكر مارك أوريل . ولكن مارك أوريل هو الفكر بامتياز . وفضلاً عن ذلك، من منا يعيش حياة مارك أوريل ؟ هنا يوجد الانسان ولا شيء أكثر . إنه لا يكبر تعسفياً، بل هو، فقط، أقرب الينا من المألوف . إنه جان الذي يقلم أشجاره، بيير الذي يبني بيته، إنه أنت الذي تحدثني عن الحصاد، وأنا الذي أعطيك يدي . ولكننا موضوعان في النقطة التي نمس، فيها، الآلهة، ونحن مدهوشان لما نفعل . لم نكن نعلم أن كل قوى النفس كانت موجودة، لم نكن نعلم أن كل قوانين الكون كانت تنتظر حولنا، ونحن نلتفت وننظر الى بعضنا دون أن نقول شيئاً كأناس شاهدوا معجزة .

إمرسون جاء ليؤكد، ببساطة، هذه العظمة المتساوية والسرية لحياتنا . لقد أحاطنا بالصمت والاعجاب . وضع خطاً من النور تحت خطى الحرفي الذي يخرج من الورشة . لقد بيّن لنا كل قوى السماء والأرض المشغولة بدعمنا على العتبة التي يتحدث عندها، جاران، عن الماء الذي ينهمر أو الريح التي تهب، ويرينا فوق، مارين يتقاربان وجه إله يبتسم لوجه إله .

إنه أقرب من أي كان الى حياتنا العادية . وهو أكثر المحذرين تنبهاً، أكثرهم اجتهاداً، أمانة، دقة، أكثرهم إنسانية احتمالاً، إنه حكيم الأيام العادية، والأيام العادية هي، في الجملة، جوهر وجودنا . أكثر من سنة تنقضي دون أهواء، دون فضائل، دون معجزات . تعلموا احترام ساعات الحياة الصغيرة . إذا استطعت أن أتصرف هذا الصباح حسب روح مارك أوريل، فلا تأتوا للإلحاح على أفعالي لأني أعلم، أنا نفسي، أن شيئاً ما قد حدث . إلا أني إذا كنت أعتقد أني أضعت يومي في عمليات بائسة، وإذا كنتم تستطيعون أن تثبتوا أني عشت، مع ذلك، بصمت بطل ، وأن نفسي لم تفقد حقوقها، فسوف تكونون قد فعلتم أكثر من إقناعي بأن أنقذ، اليوم، عدوي لأنكم زدتم فيّ جملة الحياة وعظمتها والرغبة فيها . وغداً، ربما سوف أعرف كيف أعيش باحترام .

* * *

نوفاليس [١]

يقول مؤلفنا : «الناس يسيرون على دروب مختلفة، ومن يتبعهم ويقارن بينهم سيشهد ولادة أشكال غريبة» . لقد اخترت ثلاثة من هؤلاء الناس الذين تؤدي بنا طرقهم الى ثلاث ذرى مختلفة . رأيت أكثر قمم النفس زرقة تتماوج في مؤلفات رويسبروك في حين تتكور، في مؤلفات إمرسون بصورة غير منتظمة، أكثر ذرى القلب البشري تواضعاً . أما هنا، فنجد أنفسنا على قمم للدماغ حادة وخطرة غالباً . ولكن هناك معتزلات مليئة بظل لطيف بين التفاوتات المخضرة لهذه القمم، والجو، فيها، من البلور الذي لا يعكر .

عجيب أن نرى كم تتباين دروب النفس البشرية نحو المسدود . يجب أن نتبع، برهة، آثار هذه النفوس الثلاث التي أتيت على ذكرها . لقد مضت، كل منها من جانبه، الى ما يتجاوز، كثيراً، الدوائر الآمنة للوعي العادي، وكل منها صادف حقائق لا تتشابه وينبغي علينا، مع ذلك، أن نستقبلها كأخوات ضالة، ووجدناها . الحقيقة المخبوءة، هي ما يجعلنا نعيش . نحن عبيدها غير الواعين والبكم، ونحن نجد أنفسنا مقيدين ما

(١) مقتطف من مقدمة ترجمة « تلاميذ في سايس »

لم تظهر قط . إلا أنه إذا ارتاب بوجودها واحد من هذه الكائنات الخارقة التي هي هوائيات النفس البشرية الواحدة بصورة لا تحصى، لحظة، متلمساً طريقه في الظلمات، فإن الأخيرين بيننا يحسون بأنفسهم، بما لا أدري من ردة فعل مفاجئة ولا تقبل التفسير، محررين من شيء ما . إن حقيقة جديدة أعلى، أنقى وأكثر غموضاً، تأخذ مكان تلك التي رأت نفسها تكتشف والتي تهرب دون عودة، ونفس الجميع، تفتتح دون أن يكشف شيء عن ذلك للخارج، عهداً أشد صفاء وتحتفل بأعياد عميقة لا نشارك فيها الا مشاركة متأخرة وبعيدة جداً . وأعتقد أن تلك هي الصورة التي تصعد بها وتمضي نحو هدف تعرفه هي وحدها .

كل ما يمكن أن يقال ليس شيئاً في ذاته . ضعوا في إحدى كفتي الميزان كل أقوال كبار الحكماء، وفي الأخرى الحكمة اللاشعورية لهذا الطفل الذي يمر، وسوف ترون أن ما كشف لنا عنه أفلاطون ومارك أوريل وشوبنهاور وباسكال لن يرفع أنملة واحدة كنوز اللاشعور الكبيرة، لأن الطفل الذي يصمت أحكم بألف مرة من مارك أوريل الذي يتكلم . ومع ذلك، فلو لم يكتب مارك أوريل كتب «تأملاته» الاثني عشر، فإن قسماً من الكنوز المجهولة التي ينطوي عليها طفلنا لن يكون كما هو . ربما لا يمكن الحديث بوضوح عن هذه الأشياء، ولكن الذين يعرفون كيف يتساءلون بدرجة كافية من العمق ويعيشون، ولو لزمن وميض برق، حسب وجودهم الكامل، يحسون أن هذا ما هو عليه الأمر . يمكن أن نكتشف يوماً الأسباب التي، من أجلها، لن تكون نفس الفلاح الذي لم يقرأ أفلاطون أو سويدنبورغ أو أفلوطين ولم يسمع بهم في حياته كما هي عليه، حتماً، اليوم لو لم يكونوا قد وجدوا . ولكن، مهما يكن عليه

الأمر، فلا تفقد أية فكرة، قط، بالنسبة لأي نفس، ومن الذي يستطيع أن يذكر الأقسام التي لا تعيش، منا، الا بفضل أفكار لم يعبر عنها أبداً. إن لوعينا أكثر من درجة، وأحكم الناس لا ينشغلون الا بوعينا اللاواعي، تقريباً، لأنه على أهبة أن يصبح إلهياً. ويبدو أن زيادة هذا الوعي المتعالي كانت دائماً، رغبة البشر المجهولة والعليا، لا يهم إنهم يجهلون ذلك لأنهم يجهلون كل شيء، ومع ذلك، فهم يتصرفون في نفوسهم بحكمة أحكم الناس. صحيح أنه لا ينبغي لمعظم البشر أن يعيشوا الا في اللحظة التي يموتون فيها، الا أنه يجب، في انتظار ذلك، أن لا يزيد الوعي الا بزيادته غير القابلة للتفسير حولنا. نحن نسعى الى أن نعرف كي نتعلم أن لا نعرف. نحن لا نكبر الا بتكبيرنا، الأسرار التي نرزح تحتها، ونحن عبيد لا يستطيعون أن يغذوا فيهم الرغبة في الحياة الا بشرط زيادة وزن سلاسلهم الذي لا يشفق، دون أن يحسوا بالاحباط أبداً..

تاريخ هذه السلاسل المدهشة هو التاريخ الوحيد لذواتنا. ذلك أننا لسنا سوى سر، وما لا نعرفه ليس هاماً. إنه ليس طويلاً حتى الآن. فهو مؤلف من بضع صفحات، ويمكن أن يقال أن أفضل الناس خافوا من التفكير فيه. ما أقل الذين تجرؤوا على التقدم حتى أطراف الفكر البشري! قولوا لنا أسماء الذين ظلوا فيها بضع ساعات.. أكثر من واحد منا وعد بذلك وبضعة آخرين شرعوا فيه برهة، ولكنهم، بعد قليل، فقدوا، واحداً بعد الآخر، القوة اللازمة للعيش هنا، وعادوا الى السقوط في جانب الحياة الخارجية، وفي المجالات المعروفة للفكر البشري ... وكل شيء تماوج، من جديد، كالسابق أمام العيون.

إن ذلك هو، في الحقيقة ،لأنه يصعب على المرء سؤال نفسه والتعرف على صوته الطفلي الصغير وسط الضجات غير المفيدة التي تحيط به . ومع ذلك، فما أقل أهمية جهود الروح الأخرى حين نفكر فيها ، وكم تمضي حياتنا العادية بعيداً عنا ! يمكن أن يقال أنه لا يظهر هناك الا أشباهنا من الساعات الفارغة، الغافلة، أو العقيمة . أما هنا ، فإنها النقطة الثابتة الوحيدة، لوجودنا ومكان الحياة نفسه . يجب أن نلجأ اليه باستمرار . نحن نعرف كل الباقي قبل أن يقال لنا . ولكننا ، هنا ، نتعلم أكثر بكثير مما يمكن أن يقال، والبرهة التي تتوقف فيها الجملة وتختبىء الكلمات، فيها ، فجأة، هي تلك التي تصادف، فيها ، نظرتنا القلقة، بغتة، عبر السنين والقرون، نظرة أخرى كانت تنتظرها بصبر على درب الله . الأجفان تغمز في الوقت نفسه، العيون تبتل بالندى العذب والمخيف لسر مماثل، ونحن نعلم أننا لسنا وحدنا على الطريق الذي لا نهاية له .

ولكن، أية كتب تحدثنا عن مكان الحياة هذا ؟ الميتافيزيكيات لا تكاد تمضي حتى الحدود ، وإذا جرى تجاوز هذه الأخيرة، فما الذي يبقى في الحقيقة ؟ بعض الصوفيين الذين يبدون مجانين لأنهم ربما كانوا يمثلون طبيعة الفكر البشري نفسه لو كانت لديه الرغبة والقوة من أجل أن يكون إنساناً حقيقياً . وليس كوننا نحب، قبل كل شيء، معلمي العقل العادي : كانت، سبينوزا ، شوبنهاور وبضعة آخرين سبباً من أجل رفض معلمي عقل مختلف هو عقل أخوي بدوره ، وربما سيكون عقلنا المقبل . وفي انتظار ذلك، تقال أشياء كانت ضرورية لنا . افتحوا كتب أعمق أعماق الأخلاقيين أو علماء النفس العاديين فسوف تحدثكم عن الحب

والكراهية والغرور وعن عواطف قلبنا الأخرى . وهذه الأشياء قد ترضينا لحظة، كزهور منزوعة من سيقانها . ولكن حياتنا الحقيقية وغير المتبدلة تجري على بعد الف ميل عن الحب ومائة الف ميل عن الغرور . نحن نملك أنا أعمق وأقل عرضة للنضوب من أنا العواطف والعقل الخالص . لا يدور الأمر حول أن نقول لأنفسنا ما نحسه عندما تهجر أحدنا عشيقته، إنها ترحل اليوم، عيناه تبكيان، ولكن نفسه لا تبكي . يمكنها أن تعرف الحدث وتحوله الى نور لأن كل ما يقع فيها يشع . ويمكن، أيضاً، أن تجهله، وعند ذلك، ما جدوى الحديث عنه ؟ يجب أن تترك هذه الأمور الصغيرة للذين لا يحسون بأن الحياة عميقة . إذا قرأت لاروشفوكو أو ستندال هذا الصباح، هل تعتقدون أني اكتسبت أفكاراً تجعلني أكثر إنسانية وأن الملائكة التي يجب أن نقترب منها نهاراً وليلاً ستجدني أجمل ؟ كل ما لا يمضي الى ما وراء الحكمة التجريبية واليومية لا يخصنا وليس جديراً بنفسنا . كل ما يمكن أن نعرفه دون قلق يخفض منا . سأبتسم بعناء إذا توصلتم الى البرهان لي على أني كنت أنانياً حتى في التضحية بسعادتي وحياتي . ولكن ما هي الأنانية بالقياس مع أمور كثيرة أخرى كلية القوة أحسها تعيش فيّ حياة لا توصف ؟ ليست العواطف هي التي توجد عند عتبتها القوانين الخالصة لوجودنا . تصل برهة لا تعود، فيها، ظواهر الشعور الاعتيادي الذي يمكن أن نسميه الشعور العاطفي أو شعور علاقات الدرجة الأولى تفيدنا ولا تعود تمس حياتنا . أوافق على أن هذا الشعور غالباً ما يكون هاماً من جهة ما، وأن من الضروري معرفة طياته . ولكنه نبتة سطحية، وجذوره تخشى النار الكبيرة المركزية لوجودنا . أستطيع أن أرتكب جريمة

دون أن تحني أية نفحة أدنى لهب في هذه النار . ومن جهة أخرى، يمكن لنظرة متبادلة، لفكرة لا تتوصل الى الانبثاق، دقيقة تمضي دون قول شيء أن تحركها الى زوابع مخيفة في قاع معتزلاتها وجعلها تفيض على حياتنا . نفسنا لا تحكم مثلنا . إنها شيء ذو نزوات وخفي . يمكن بلوغها بنسمة وأن تجهل العاصفة . يجب البحث عما يمسها، كل شيء هنا، لأننا نحن هنا .

وهكذا، وكي نعود الى هذا الشعور العادي الذي يسود نفوسنا الى مسافات بعيدة، أعلم أكثر من روح أن التصوير الرائع لغيرة عطيل لم يعد يدهش . إنه نهائي في دوائر الانسان الأولى ، يبقى حرياً بالاعجاب شريطة أن نعنى بعدم فتح أبواب أو نوافذ، وإلا تناثرت الصورة رماداً في ريح كل المجهول الذي ينتظر في الخارج . نحن نصغي الى الحوار بين المغربي وديزدمونه كشيء كامل، ولكن ذلك دون أن نستطيع منع أنفسنا من التفكير في أشياء أعمق . وسواء أكان المحارب الإفريقي مخدوعاً أم غير مخدوع، من المرأة البندقية النبيلة، فإن له حياة أخرى . يجب أن تمر في نفسه وحول وجوده، في برهة أكثر شكوكه بؤساً وأكثر أنواع غضبه شدة، نفسها، أحداث، الف مرة أسمى ،لا تستطيع زمجراته، قط، أن تعكرها، ومن خلال إثارات الغيرة السطحية، يستمر وجود لا يتغير لم تبينه عبقرية الانسان ،حتى الآن، الا بصورة عابرة .

أهناك يولد الحزن الذي يتصاعد من التحف الأدبية ؟ الشعراء لم يستطيعوا أن يكتبوها الا شريطة أن يغمضوا عيونهم عن الآفاق الرهيبة وأن يفرضوا الصمت على أصوات أنفسهم البالغة الرزانة والتعدد . لو لم يفعلوا ذلك لفقدوا الشجاعة . لا شيء أبعث على الحزن والخيبة من تحفة

أدبية لأن لا شيء يبين أفضل منها عجز الانسان عن وعي عظمته وكرامته، إذا لم ينبهنا صوت الى أن أجمل الأشياء ليست شيئاً بالقياس مع كل ما نحن عليه، ولا شيء يزيد في الخفض منا .

يقول إمرسون : «النفس أسمى مما يمكن أن نعرفه عنها وأحكم من أيّ من أعمالها » . الشاعر الكبير يشعرنا بقيمتنا الخاصة، وعند ذلك ينقص تقديرنا لما حققه . أفضل شيء يعلمنا إياه هو ازدراء كل ما فعله . إن شكسبير يأخذنا في تيار فعالية ذكية من السمو بحيث يوحي لنا بفكرة غنى يبدو غناه، الى جانبه، فقيراً، عند ذلك نحس بأن العمل الرفيع الذي خلقه والذي نرفعه، في لحظات أخرى، الى مستوى شعر موجود في ذاته لا ينتمي الى طبيعة الأشياء الحقيقية أعمق من انتماء ظل المار الآبق على صخرة إلى الصخرة ذاتها ..

ليست صرخات القصائد والتراجيديات الكبيرة السامية شيئاً أخر خلاف صرخات صوفية لا تنتمي الى الحياة الخارجية لهذه القصائد أو لهذه التراجيديات . إنها تنبثق لحظة من الحياة الداخلية وتجعلنا نأمل في ما لا أدري من غير متوقع وكنا ، مع ذلك، ننتظره بكثير من فراغ الصبر ! والى أن تغطيها العواطف المعروفة أكثر مما ينبغي بثلوجها ... تكون هذه البرهات هي التي وضعت، فيها ، الانسانية نفسها في حضور ذاتها كانسان في حضور ملاك . الا أن المهم أن تضع نفسها ، في أكثر ما يمكن من الأحيان، في حضور ذاتها لتعرف من هي . إذا نزل كائن من عالم آخر بيننا وسألنا عن الأزهار السامية لنفوسنا وعن ألقاب النبالة على الأرض، فما الذي سنعطيه له ؟ بعضهم سيأتي بالفلاسفة دون أن يعلم ماذا يفعلون . نسيت من هو الآخر الذي أجاب بأنه كان سيقدم

«عطيل» و«الملك لير»و«هاملت» . حسناً كلا، لسنا هذا، وأعتقد أن نفوسنا ستمضي للموت خجلاً في قاع أجسادنا لأنها لا تجهل أن كنوزها المرئية ليست مصنوعة لتفتح أمام عيون الغرباء وأنها لا تحتوي الا على حجارة زائفة . أبسطنا يشعر، في اللحظات التي يعرف فيها ما يجب أن يعرفه، بأن له الحق في أن يتمثل بشيء آخر خلاف تحفة أدبية . نحن كائنات غير مرئية . لن يكون لدينا ما نقوله للمبعوث السماوي ولا ما نجعله يراه، وأجمل أشيائنا تبدو لنا، فجأة، شبيهة بهذه الذخائر العائلية المسكينة التي كانت تبدو لنا ثمينة جداً في أعماق دولابها والتي تصبح فائقة البؤس عندما نخرجها لحظة من ظلها لنريها لغير مبال ما . نحن كائنات غير مرئية لا تعيش الا في ذاتها، والزائر المتنبه يمضي دون أن يشك، أبداً، بما كان يمكن أن يراه ما لم تتدخل، في تلك اللحظة، نفسنا الحميمة . إنها تهرب أمام الأشياء الصغيرة بدرجة كبيرة من الطواعية، ونجد عناء في إيجادها ثانية في الحياة بحيث نخشى أن نطلب مساعدتها . ومع ذلك، فهي حاضرة، دائماً، ولا تخدع أبداً، ولا تنخدع منذ أن تحذر ، سوف تبين للرسول غير المتوقع يدي الانسان المضمومتين وعينيه المليئتين بأحلام ليس لها حتى اسم ، وشفتيه اللتين لا تستطيعان أن تقولا شيئاً، وربما لن يعود الآخر ، إذا كان جديراً بالفهم، يجرؤ على السؤال .

الا أنه إذا كانت تلزم براهين أخرى، فسوف تقوده بين الذين تكاد أعمالهم تمس الصمت . سوف تفتح أبواب المجالات التي يحبها، فيها، بعضهم من أجل ذاتها دون أن يأبهوا بحركات جسدها الصغيرة . سوف يصعد الاثنان الى الهضاب العالية المتوحدة التي يرتفع، فيها، الشعور

درجة وحيث يحوم كل المشغولين بأنفسهم، بتنبه، حول الخلقة الممسوخة التي تربط العالم الظاهر بعوالمنا العليا . ستذهب معه الى حدود الانسان . ذلك الانسان يبدأ، احتمالاً، في الموضع الذي يبدو، فيه، على أهبة الانتهاء . ولا توجد أجزاؤه الأساسية والتي لا تنضب الا في غير المرئي حيث يجب أن يرقب نفسه دون انقطاع . على هذه المرتفعات، وحدها، توجد أفكار لاتستطيع النفس أن تبوح بها وفِكر تشبهها وملحة بقدر ما هي نفسها . هناك سادت الانسانية لحظة، وهذه الذرى الضعيفة الانارة ربما كانت الومضات الوحيدة التي تشير الى الأرض في الفضاءات الروحية . لانعكاساتها، حقاً لون نفوسنا . نحن نحس بأن أهواء الروح والقلب تشبه، في نظر ذكاء غريب، خصومات محلية . ولكن الرجال الذين أتحدث عنهم خرجوا في أعمالهم، من قرية الأهواء الصغيرة،قالوا أشياء يمكن أن تهم الذين ليسوا من الأبرشية الأرضية . لا ينبغي لانسانيتنا أن تتململ، حصراً، في أعماق ذاتها كقطيع من الخلدان . من المهم أن تعيش كما لوكان عليها أن تقدم ذات يوم، حساباً عن حياتها لاخوة أكبر سناً .الروح المنطوية على نفسها ليست سوى شهرة محلية تحمل المسافر على الابتسام . هناك شيء آخر غير الروح، وليست الروح هي التي توحدنا بالكون . لقد حان وقت عدم الخلط بينها وبين النفس بعد . فلا يدور الأمر حول ما يجري بيننا، بل حول ما حدث فينا، فوق الأهواء والعقل . إذا لم أقدم الى الذكاء الغريب سوى لاروشفوكو أو ليشتنبرغ أو ميريديت أو ستاندال، فإنه سوف ينظر الي كما أنظر، في قعر مدينة ميتة، الى البورجوازي المجرد من الأمل الذي يحدثني عن زقاقه . أي ملاك سيسأل تيتوس لماذا لم يتزوج بيرينيس، ولماذا

أندروماك لم تقبل خطوبة بيروس ؟ ماذا تمثل بيرينيس إذا قارنتها بما هو غير مرئي في المتسولة التي تستوقفني أو بالمومس التي تشير لي ؟ الكلمة الروحية، وحدها، تستطيع، في بعض الاحيان، أن تمثل كائناً بشرياً، ولكن نفوسنا ليست في هذه المناطق الأخرى التي ليس لها ظلال ولا هوآت . و أنتم هل توقفتم في الساعات الخطيرة التي تثقل، فيها، الحياة على أكتافكم ؟ الانسان ليس في هذه الأشياء، ومع ذلك، فهذه الأشياء كاملة . الا أنه لا ينبغي الكلام عنها الا بين المرء وذاته، ومن المناسب السكوت عنها أذا قرع زائر ما ذات مساء بابنا، الا أنه إذا فاجأني هذا الزائر نفسه في البرهة التي تبحث، فيها، نفسي عن مفتاح أقرب كنوزها لدى باسكال أو أمرسون أو هيلو، أو من جهة أخرى، لدى بعض الذين انشغلوا بالجمال النقي جداً، فلن أغلق كتابي محمراً من الخجل . وربما سيأخذ، هو نفسه، من ذلك، فكرة، عن كائن أزلي محكوم بالصمت أو سيعرف، على الأقل، أننا لم نكن، كلنا سكاناً راضين للأرض .

* * *

الفاجع اليومي

هناك فاجع يومي أكثر واقعية بكثير، أكثر عمقاً بكثير وأكثر تطابقاً مع وجودنا الحقيقي من فاجع المغامرات الكبيرة . من السهل الاحساس بذلك، ولكن بيانه ليس باليسير لأن هذا الفاجع الأساسي ليس، ببساطة، مادياً أو سيكولوجياً . لم يعد الأمر يدور هنا حول الصراع المصمم لكائن ضد كائن آخر، صراع رغبة ضد رغبة أخرى أو حول المعركة الأزلية بين العاطفة والواجب . الأمر يدور، بالأحرى، حول جعلنا نقتفي الخطى المترددة والمؤلمة لكائن يقترب أو يبتعد عن حقيقته، عن جماله أ و عن إلهه . وقد يدور الأمر، أيضاً، حول جعلنا نرى ونسمع الف شيء مماثل أتاح لنا الشعراء الدراميون أن نراها بصورة عابرة . ولكن، هذه هي النقطة الأساسية : ألا يمكن إظهار ما جعلونا نلمحه بصورة عابرة قبل الباقي ؟ وما نسمعه في الملك لير، في ماكبث، في هاملت، مثلاً، النشيد الغامض للامتناهي، صمت النفوس أو الآلهة المهدد، الأزلية، التي تزمجر في الأفق، المصير أو القدر الذي ندركه داخلياً دون أن نستطيع أن نقول ما هي العلامات التي نتعرف عليه بها، ألا يمكن، بما لا أدري من قلب الأدوار أن نقربها منا في حين نبعد

الممثلين ؟ هل من قبيل المجازفة، إذن، أن نؤكد أن فاجع الحياة الحقيقي، الفاجع الطبيعي، العميق والعام، لا يبدأ الا في البرهة التي تكون فيها، المغامرات والآلام والأخطار قد انقضت ؟ أليس ذراع السعادة أطول من ذراع الشقاء وهلاً تقترب بعض قواه مسافة أكبر من النفس البشرية ؟ هل يجب ،إطلاقاً، العويل كالأتريديين من أجل أن يظهر إله أزلي في حياتنا، وهلا يأتي أبداً ليجلس في سكون مصباحنا ؟ أليس الهدوء هو المخيف عندما نفكر فيه وتراقبه النجوم، وهل ينمو معنى الحياة في الضجة أم في الصمت ؟ وعندما يقال لنا، في نهاية الحكايات : «وعاشوا سعداء» . أليست تلك هي البرهة التي يجب أن يدخل، عندها، القلق الكبير ؟ الا تكشف السعادة أو مجرد لحظة راحة عن أشياء أكثر جدية واستقراراً من هياج الأهواء ؟ أليست هذه اللحظة هي التي يصبح، فيها، سير الزمن ومسيرات أخرى أكثر سرية مرئية وتتسارع، فيها، الساعات ؟ ألا يمس كل هذا الأعصاب أعمق من طعنة خنجر المآسي العادية ؟ أليس الحين الذي يخيل، فيه للمرء أنه في مأمن من الموت الخارجي هو الذي تفتح، فيه، فاجعة الوجود والمسافات الشاسعة أبواب مسرحها حقاً ؟ هل الوقت الذي أهرب فيه، أمام سيف مسلول، هو الذي يبلغ، فيه، وجودي أهم نقطة له ؟ هل القبلة هي التي يكون، فيها، أكثر ما يمكن سمواً ؟ أليست هناك برهات أخرى نسمع، فيها . أصواتاً أشد ديمومة ونقاء ؟ ألا تزهر نفسك الا في أعماق ليالي عاصفة ؟ يمكن أن يقال أن الناس ظنوا ذلك حتى الآن، على اعتبار أن مؤلفينا الدراميين لا يلمسون الا حياة الأزمنة الغابرة، وإذا استطعنا أن نؤكد أن كل مسرحنا متقادم وأن الفن الدرامي متأخر بالعدد نفسه من

السنوات الذي يتأخر، به، النحت . والأمر ليس كذلك، مثلاً، بالنسبة للرسم الجيد والموسيقى الجيدة اللذين عرفا كيف يكتشفان ويعبران عن أكثر السمات خفاء والتي ليست أقل رصانة وإدهاشاً من حياة اليوم . لقد لاحظنا أن هذه الحياة لم تخسر في السطح التزييني الا لتكسب في العمق . في الدلالة الحميمة والرصانة الروحية . الرسام الجيد لن يعود يرسم ماريوس المنتصر على السمبريين ولا مقتل الدوق دوغيز لأن سيكولوجية الانتصار أو الجريمة أولية واستثنائية، ولأن الصخب العقيم لفعل عنيف يخنق صوت الكائنات والأشياء الذي هو أشد عمقاً، ولكنه متردد ومتحفظ . سوف يصور بيتاً ضائعاً في الريف، باباً مفتوحاً في نهاية ممر، وجهاً أو يدين مستريحتين . وسوف يمكن لهذه الصور البسيطة أن تضيف شيئاً الى شعورنا بالحياة، وهو ملك لم يعد فقدانه ممكناً .

ولكن مؤلفينا الدراميين كرسامينا المتواضعين الذين يتخلفون عند رسم التاريخ، يصبون كل اهتمامهم على عنف الحادثة التي يعيدون إنتاجها . وهم يدعون تسليتنا بالنوع نفسه من الأفعال الذي كان يمتع البرابرة الذين كانت الاعتداءات والجرائم والخيانات التي يمثلونها مألوفة لديهم، في حين أن معظم حياتنا ينقضي بعيداً عن الدم، عن الصرخات والسيوف، وأن دموع البشر أصبحت صامتة، غير مرئية وروحية تقريباً ..

عندما أذهب الى المسرح، يبدو لي أني وجدت نفسي، لبضع ساعات، وسط أجدادي الذين كان لهم تصور بسيط للحياة، جاف ومتصلب، لم أعد أتذكره ولم أعد أستطيع أن أشارك فيه . أرى فيه، زوجاً مخذوعاً يقتل زوجته، امرأة تسمم عشيقها، ابناً يثأر لأبيه، أباً يضحي بأبنائه، أبناء يميتون أباهم، ملوكاً مقتولين، عذارى مغتصبات، بورجوازيين

مسجونين، وكل السامي التقليدي، ولكنه، للأسف، سطحي، ومادي الى أبعد الحدود، دماً، دموعاً خارجية وموتاً . ماذا يمكن أن تقول لي كائنات ليس لها سوى فكرة ثابتة وليس لها الوقت للعيش لأنها يجب أن تميت خصماً أو عشيقة .

كنت قد جئت، لأرى شيئاً من الحياة مرتبطاً بينابيعها وأسرارها بصلات ليست لدي الفرصة ولا القوة لأراها في كل الأيام . كنت قد جئت على أمل أن ألمح، برهة ،جمال وجودي اليومي البسيط، عظمتها وخطورتها . كنت آمل أن يقدموا لي ما لا أدري من حضور، من قوة أو من إله يعيش معي في غرفتي . كنت أنتظر مالا أدري من دقائق عليا أعيشها دون أن أعرفها وسط أشد ساعاتي بؤساً، ولم أكتشف، في معظم الأحيان، سوى رجل قال لي مطولاً، لماذا هو غيور، ولماذا يسمم أو لماذا يقتل نفسه . أعجب بعطيل، ولكنه لا يبدو أنه يعيش الحياة الجليلة اليومية لشخص مثل هاملت الذي يملك الوقت للعيش لأنه لا يعمل . عطيل غيور بصورة عجيبة . ولكن الا يمكن أن يكون خطأ قديماً أن نفكر بأننا لا نعيش حقاً الا في البرهات التي تتملكنا، فيها، مثل هذه العاطفة أو أخرى مساوية لها في عنفها ؟ اتفق لي أن ظننت أن عجوزاً جالساً في مقعده، ينتظر ببساطة تحت المصباح، يصغي دون أن يعرف الى كل القوانين الازلية التي تسود حول هذا المنزل، مفسراً ما في صمت الأبواب والنوافذ وفي صوت النور الصغير، دون أن يفهمه، معانياً وجود نفسه ومصيره، حانياً رأسه قليلاً دون أن يشك في أن كل قوى هذا العالم تتدخل وتسهر في الغرفة كخادمات يقظات، جاهلاً أن الشمس نفسها تسند فوق الهوة الطاولة الصغيرة التي يتكىء عليها، وأنه ما

من نجم في السماء ولا قوة للنفس لا يباليان بحركة جفن يغمض أو بفكرة ترتفع، اتفق لي أن ظننت أن هذا العجوز الساكن كان يعيش حياة عميقة، أكثر إنسانية وأعم من حياة العاشق الذي يخنق عشيقته والقائد الذي يحرز انتصاراً والزوج الذي يثأر لشرفه . ربما سيقال لي إن حياة ساكنة لن تكون مرئية أبداً، إنه يجب تحريكها ببعض الحركات، وأن هذه الحركات المتنوعة والمقبولة لا توجد الا في العدد الصغير من العواطف المستخدمة حتى الآن . لا أعلم إذا كان صحيحاً أن المسرح الكوني مستحيل . بل يبدو لي أنه موجود. معظم تراجيديات اسكيلوس تراجيديات ساكنة . أنا لا أتحدث عن « برمثيوس » و«المتوسلات» حيث لا يحدث شيء، ولكن كل تراجيديا «الشويغور» التي هي، مع ذلك، أرهب مأساة، في العصر القديم تراوح كحلم سيىء أمام قبر أغاممنون الى أن تنبجس جريمة القتل، كبرق، من تراكم الصلات التي تنطوي، باستمرار، على نفسها، افحصوا من وجهة النظر هذه بضعة أمثلة أخرى من أجمل التراجيديات القديمة : «الأومينيديون» ، «أنتيغون»، «الكترا»، «أوديب في كولون» . يقول راسين في مقدمته لمسرحية «بيرينيس» : «لقد أعجبوا بـ «اجاكس» لسوفوكليوس التي ليست سوى أجاكس الذي قتل نفسه أسفاً بسبب الغضب الذي وقع فيه بعد رفض تسليمه أسلحة آشيل . وأعجبوا بـ «فيلوكتيت»، وكل موضوعه هو يوليس الذي جاء ليفاجىء اسهم هرقل . وأن «أوديب» نفسها، على الرغم من كونها مليئة تماماً بالتعارضات، ليست سوى أبسط تراجيديات أيامنا ».

أهذا شيء آخر خلاف الحياة الساكنة تقريباً ؟ في العادة، ليس هناك

حتى عمل سيكولوجي هو، الف مرة، أعلى من العمل المادي ويبدو ضرورياً، ولكنها تتوصل، مع ذلك الى حذفهما، أو الى اختزالهما بصورة عجيبة كي لا تبقي على اهتمام خلاف الذي يوحي به موقف الانسان في الكون . هنا، لم نعد لدى البرابرة . والانسان لم يعد يتململ وسط عواطف أولية لا تكون الأشياء الهامة الوحيدة الموجودة فيه . لدينا الوقت لرؤيته في حالة راحة . لم يعد الأمر يدور حول برهة استثنائية وعنيفة من الحياة، بل حول الحياة نفسها التي هي الف مرة أقوى وأجدر بالاحترام من قوانين الأهواء . ولكن هذه القوانين البطيئة، المتحفظة والصامتة، ككل ما هو مزود بشكل لا يقاوم، لا ترى وتسمع بعضها بعضاً الا في نور الحياة الباهت وخشوع ساعاتها الهادئة .

عندما يأتي يوليس ونيوبتوليم الى فيلوكتيت للمطالبة بأسلحة هرقل، فإن عملهما، في حد ذاته، هو في بساطة وعدم أهمية رجل من أيامنا يدخل الى منزل ليزور، فيه، مريضاً، مسافر يطرق باب منزل أو أم تنتظر قرب النار عودة ابنها . إن سوفوكليس يؤشر، في طريقه، بخط سريع تحت طبع ابطاله . ولكن، ألا يمكن أن نؤكد أن الأهمية الرئيسية للتراجيديا لا توجد في الصراع الذي نراه، فيها، بين البراعة والولاء، بين رغبة الوطن وحقد الغرور وتعنته ؟ هناك شيء آخر والحياة العليا للانسان هو ما يدور الأمر حول رؤيته . يضيف الشاعر، الى الحياة، ما لا أدري ما هو الذي هو سر الشعراء، وتظهر فجأة في عظمتها المدهشة، في خضوعها للقوى المجهولة، في علاقاتها التي لا تنتهي، وفي بؤسها الرسمي . يدع كيميائي بضع قطرات غامضة تسقط في آنية لا يبدو أن فيها أكثر من الماء الصافي، وسرعان ما يرتفع عالم من البلورات حتى

الحواف ويكشف لنا عما كان هناك من معلق في هذه الآنية التي لم تكن عيوننا غير المكتملة قد رأت فيها شيئاً . وهكذا يبدو، في فيلوكتيت، أن سيكولوجية الشخصيات الرئيسية الثلاث الصغيرة لا تشكل سوى جدران الآنية التي تحتوي على الماء الصافي الذي هو الحياة العادية التي سيسقط الشاعر فيها القطرات الكاشفة لعبقريته .

ولذلك، فليس الأفعال، بل الأقوال، هي التي يوجد فيها جمال التراجيديات الكبيرة والجميلة وعظمتها . هل يوجدان، فقط، في الأقوال التي تصحب الأفعال وتفسرها ؟ كلا، يجب أن يكون هناك شيء آخر غير الحوار الضروري خارجياً . فلا حساب أبداً، في عمل ما، الا للأقوال التي تبدو، أولاً، غير مفيدة، ففيها توجد روحه . وإلى جانب الحوار الضروري، هناك دائماً تقريباً، حوار آخر يبدو نافلاً . افحصوا بانتباه وسوف ترون أنه، وحده، الذي تصغي اليه النفس بعمق لأن هذا المكان، هو وحده، الذي يجري، فيه، التحدث معها . وسوف تعرفون، أيضاً، أن نوعية هذا الحوار غير المفيد وسعته هما اللذان يقرران نوعية العمل ومداه الذي لا يوصف . من المؤكد أن الحوار الضروري لا يلبي أبداً، في الدرامات العادية، الواقع، وما يصنع الجمال السري لأجمل التراجيديات موجود، بالضبط، في الأقوال التي تقال الى جانب الحقيقة المضبوطة والظاهرة . إنه موجود في الأقوال المطابقة ،لحقيقة أعمق وأقرب، بلا قياس الى النفس غير المرئية التي تدعم القصيدة .بل يمكن أن نؤكد أن القصيدة تقترب من الجمال ومن حقيقة عليا بقدر ما تستبعد الأقوال التي لا تفسر ما يسمى «حالة نفسية» بل ما لا أعلم من جهود لا تستوعب ولا تنقطع للنفوس في اتجاه جمالها وفي اتجاه حقيقتها .

وضمن هذا القدر، أيضاً، تقترب من الحياة الحقيقية . يتفق لكل إنسان في الحياة، اليومية، أن يكون عليه حل موقف خطير جداً في كلمات . فكروا في ذلك لحظة . هل ما تقولونه عادة أو ما يرد به عليكم هو، دائماً، في هذه البرهات، أكثر ما يهم ؟ هل تدخل مجال الفعل وتحدد الحدث قوى أخرى، أقوال أخرى لا تسمع ؟ ما أقوله قليل الأهمية غالباً .ولكن حضوري ، موقف نفسي ، مستقبلي وماضيّ ما سيولد ، ،ما مات فيّ ، فكرة سرية ، النجوم التي تقرر مصيري، الف سر وسر تحيط به هي التي تتحدث اليكم في هذه اللحظة الفاجعة، وهي ما يجيبني . هناك كل هذا في كل من كلماتي تحت كل من كلماتكم، وهذا هو خاصة ما نراه، وهذا هو خاصة ما نسمعه على الرغم منا، إذا جئت أنت «الزوج المهان» «العاشق المخدوع» «المرأة المهجورة» بقصد قتلي، فليس أفصح توسلاتي هي التي ستستطيع إيقاف ذراعكم . إلا أنه يمكن، أن تصادفوا إذ ذاك، إحدى هذه القوى غير المتوقعة وأن تقول لكم نفسي التي تعرف أنها تسهر حولي كلمة سرية تجردكم من السلاح . هذه هي الدوائر التي تقرر، فيها، المغامرات، هذا هو الحوار الذي يجب أن يسمع صداه . وهذا الصدى هو ما نسمعه فعلاً – ضعيفاً الى أقصى الحدود ومتحولاً حقاً – في بعض الأعمال الكبيرة التي كنت أتحدث عنها منذ قليل . ولكن، ألا نستطيع أن نحاول المزيد من التقرب من هذه الدوائر التي يجري، فيها، كل شيء «في الواقع» .

يبدو أن أحداً يريد المحاولة، ومنذ بعض الوقت، وبمناسبة دراما إبسن التي نسمع، فيها، بأفجع الصور، هذا الحوار من الدرجة الثانية، بصدد سولنيس البناء، حاولت، بطريقة أكثر خرقاً أيضاً، اختراق هذه الأسرار،

ومع ذلك، فإنها آثار مماثلة ليد الأعمى نفسه على الجدار نفسه، وتتجه أيضاً، الى الومضات نفسها . ماذا أضاف الشاعر، في «سولنيس» الى الحياة لتبدو لنا في هذه الغرابة، في هذا العمق، في هذا الاقلاق تحت تفاهتها الخارجية ؟ ليس من السهل اكتشاف ذلك، والمعلم العجوز يحتفظ بأكثر من سر . بل يبدو أن ما أراد قوله ليس سوى شيء قليل بالقياس مع ما توجب عليه قوله . لقد أعطى الحرية لبعض قوى النفس التي لم تكن حرة، قط، والتي ربما كانت تتملكه . يهتف سولنيس قائلاً : «أترين يا هيلد؟ هناك سحر فيك كما فيّ تماماً . هذا السحر هو الذي يحرك قوى الخارج . ويجب أن نقبله، أردنا ذلك أم لم نرده، ينبغي ذلك» .

هناك سحر فيهما، كما فينا جميعاً . أعتقد أن هيلد وسولنيس هما أول الأبطال الذي يحسون بأنفسهم يعيشون لحظة في جو التفس، وهذه الحياة الأساسية التي اكتشفاها فيهما، ما وراء حياتهما العادية تخيفهما . هيلد وسولنيس نفسان رأيا موقفهما في الحياة الحقيقية . هناك أكثر من صورة، لمعرفة إنسان . آخذ، مثلاً. كائنين، أو ثلاثة أراها كل يوم تقريباً . من المحتمل أني لم أميزها لوقت طويل، الا بحركاتها، بعاداتها الخارجية، أو الداخلية، بطريقتها في الشعور والتصرف والتفكير . إلا أنه تصل، في كل صداقة طويلة قليلاً، لحظة غامضة نرى، فيها، إن صح هذا القول، الموقف المضبوط لصديقنا بالنسبة للمجهول الذي يحيط به، وموقف القدر حياله . وهذه اللحظة هي التي يخصنا فيها، حقاً . لقد رأينا، مرة واحدة ونهائية، بأية طريقة ستجري بها الأحداث في نظره . نحن نعلم أنه عبثاً ما سوف ينسحب الى أعماق معتزلاته ويلتزم السكون الى أقصى حد ممكن خوفاً من إثارة شيء في

مختزنات المستقبل الكبيرة، فإن حذره لن يجدي شيئاً، وسوف تكتشفه الأحداث التي لا تحصى المكرسة له في مكان ما يختبىء فيه، وسوف تقرع، متعاقبة، بابه . ومن جهة أخرى، لا نجهل أن هذا الأخير سيخرج دون جدوى سعياً وراء كل المغامرات . ولن يعود منها، دائماً، فارغ اليدين . يبدو أن علماً عصياً على الخطأ يولد، دون سبب، في نفوسنا، في اليوم الذي انفتحت، فيه، عيوننا على هذا النحو . ونحن واثقون من هذا الحدث الذي يبدو، مع ذلك، في متناول ذاك الانسان لن يستطيع الوصول اليه .

منذ هذه اللحظة، يسود قسم خاص من النفس صداقة أذكى الكائنات، بل وأغباها . هناك نوع من نقل الحياة . وعندما نلتقي، مصادفة، أحد الذين نعرفهم على هذا النحو، فإن هناك في كل منا، فيما نحن نتحدث عن الثلج الذي ينهمر أو النساء المارات، شيئاً صغيراً يتبادل التحية، الفحص، يتساءل على غير علم منا، يهتم بظروف، يتحدث عن أحداث لا يمكننا أن نفهمها .

أعتقد أن هيلد وسولنيس موجودان في هذه الحالة، ويريان ذاتهما بهذه الطريقة . حديثهما لا يشبه، في شيء، ما سمعناه حتى الآن لأن الشاعر حاول أن يمزج، في تعبير واحد، بين الحوار الخارجي والحوار الداخلي . يسود في هذه الدراما المسرنمة ما لا أدري من قوى جديدة . كل ما فيها يخفي ويكشف، في الوقت نفسه، ينابيع حياة مجهولة . وإذا كنا ندهش في بعض البرهات، فلا ينبغي أن ننسى أن نفوسنا غالباً ما تكون، في عيوننا المسكينة، قوة مجنونة جداً، وأن في الانسان مناطق كثيرة أكثر خصباً وعمقاً وأهمية من مناطق العقل أو الذكاء .

يمكن أن يقال، أن شاعراً تراجيدياً، «قد اجتاز، ومشعل الشعر في يده، متاهات القدر» من قرن الى قرن . لقد ثبتوا بهذه الصورة، كل حسب قوى ساعته، نفس الحوليات البشرية، وصنعوا على هذا النحو تاريخاً إلهياً . ففيهم، وحدهم، يمكن أن تتابع التغيرات التي لا تحصى في القوة الراسخة الكبيرة . ومن المهم أن نتابعها، ذلك أنه ربما كانت أنقى نفس للشعوب في أعماق الفكرة التي كونوها عن هذه القوة . إنها لا تموت أبداً، ولكن هناك برهات لا تكاد تتحرك فيها، وفي هذه البرهات يلاحظ أن الحياة، ليست قوية جداً ولا عميقة جداً . إنها لم تعبد الا مرة واحدة دون شريك لها . كانت آنذاك، بالنسبة للآلهة ذاتها، سراً مخيفاً . من الغريب الى حد كاف أن نتبين أن الفترة التي ظهرت، فيها ،الألوهية دون وجه بدت أرهب الفترات وأعصاها على الفهم، كانت أجمل فترات البشرية ، وأن أسعد الشعوب كانت من تصور القدر في أرهب وجوهه .

يبدو أن هناك قوة سرية في هذه الفكرة، أو أن هذه الفكرة علامة قوة . هل يكبر الانسان بقدر ما يعترف بعظمة المجهول الذي يسيطر عليه ؟ أم

هل المجهول هو الذي يكبر بنسبة الانسان ؟ قد يقال اليوم، أن فكرة القدرتستيقظ . وربما لا يكون من غير المجدي المضي للبحث عنه ولكن، أين نجده ؟ اليس المضي للبحث عن القدر هو المضي للبحث عن الأحزان البشرية ؟ لا قدر في الفرح، لا يوجد نجم سعيد . النجم الذي نسميه هكذا هو نجم يصبر . وفضلاً عن ذلك، فمن المهم أن نخرج، أحياناً، للبحث عن أحزاننا من أجل أن نعرفها ونتأملها حتى حين لا تكون كتلة مصيرنا الكبيرة التي لا شكل لها في طرف الخط .

هذه أفضل طريقة للخروج من أجل البحث عن الذات، ذلك أنه يمكن أن يقال إننا لا نساوي الا ما تساويه أنواع قلقنا وكآبتنا . وبقدر ما نتقدم، تصبح أعمق، أكثر نبلاً وأجمل، ومارك أوريل هو أروع الناس لأنه فهم، أكثر من أي شخص آخر، ما وضعته نفسنا في الابتسامة المستسلمة المسكينة التي يجب أن تكون في أعماقنا . والأمر هو كذلك بالنسبة لأحزان البشرية . إنها تسلك درباً يشبه درب أحزاننا، ولكنه أطول وأكثر أمناً ويجب أن يؤدي الى أوطان لن يعرفها الا آخر القادمين وحدهم . وهو ينطلق، أيضاً، من الألم الجسدي . لقد أتى على المرور بالخوف من الآلهة ويتوقف، اليوم، حول هوة جديدة لم يسبر أفضلنا بعد، أعماقها .

كل قرن يحب ألماً آخر، لأن كل قرن يرى قدراً آخر . من المؤكد أننا لم نعد نهتم كما في السابق، بكوارث أهوائنا، وأكثر تحف الماضي الفنية تراجيدية تنطوي على نوعية حزن أدنى من نوعية أحزاننا اليوم . إنها لم تعد تمسنا الا بصورة غير مباشرة، بما تضيفه تأملاتنا والنبل الجديد الذي اكتسبه الم الحياة فينا الى المصادفات البسيطة للكراهية أو الحب التي

تعيد إنتاجها أمامنا .

يبدو أحياناً، أننا على شفا تشاؤمية جديدة، غامضة . وربما كانت نقية جداً . ان أرهب الحكماء : شوبنهار، كارليل، الروس، السكندنافيين والمتفائل الطيب إمرسون، هو أيضاً (لأن لا شيء أكثر إحباطاً من متفائل طوعي) مروا دون أن يفسروا كآبتنا . إننا نحس بأن وراء كل الأسباب التي حاولوا أن يقولوها لنا أسباباً أخرى كثيرة أعمق لم يستطيعوا اكتشافها . إن حزن الانسان الذي كان منذ مجيئهم، جميلاً فعلاً يمكن أن يزيد، أيضاً، نبلاً بصورة لا متناهية الى أن يتلفظ كائن عبقري، أخيراً، بكلمة الألم الأخيرة التي ربما سوف تطهرنا كلياً .

وفي انتظار ذلك، نحن بين أيدي قوى غريبة، ونحن على أهبة الارتياب في نواياها . في زمن التراجيديات الكبيرة، في العهد الجديد، في زمن شكسبير وراسين، والذين عقبوهما كان يظن أن البلايا تأتي، جميعها، من أهواء قلوبنا المتنوعة . الكارثة لا تتأرجح بين عالمين . إنها تأتي هنا لتذهب الى هناك . ونحن نعرف من أين تخرج . الانسان هو السيد دائماً وفي زمن اليونانيين، كان ذلك بدرجة أدنى، وكان القدر يسود على المرتفعات . ولكنه كان عصياً على الفهم، ولم يكن أحد يجرؤ على مساءلته . أما اليوم، فإنه هو موضع الاستجواب، وربما كانت تلك العلامة الكبرى التي تدمغ المسرح الجديد . لم يعد يجري التوقف عند نتائج المصيبة، بل عند المصيبة نفسها، وتراد معرفة جوهرها وقوانينها . ما كان الشاغل اللاشعوري لأوائل التراجيديين وما كان يشكل الظل الرسمي الذي كان، يحيط عن غير علم منهم، بحركات الموت الخارجي الشديدة والعنيفة، طبيعة المصيبة نفسها، قد أصبح

النقطة المركزية، لأحداث الدرامات وبؤرة الومضات الملتبسة التي تدور حولها نفوس الرجال والنساء . وقد خطونا خطوة في جهة السر لننظر الى مخاوف الحياة وجهاً لوجه .

قد يكون من المهم أن نبحث عن الزاوية التي يواجه، منها، آخر تراجيديينا المصيبة التي هي خلفية كل القصائد الدرامية . إنهم يرونها من مكان أقرب من ذاك الذي كان اليونانيون ينظرون، منه، اليها وينفذون، أكثر منهم، الى الظلمات الخصبة لدائرتها الداخلية . ربما كانت ألوهية مماثلة، ولكنهم يجهلونها بصورة أكثر حميمية . من أين تأتي، أين تذهب ولماذا تنزل ؟ اليونانيون ما كادوا يتساءلوا عن ذلك . هل هي مقيمة فينا أم أنها تولد في الوقت نفسه معنا ؟ أهي التي تتقدم للقائنا أم أنها مدعوة من جانب أصوات نغذيها في أعماق وجودنا وتكون متواطئة معها ؟ يجب أن نستطيع أن نلاحظ من ذرى عالم آخر تصرفات إنسان يجب أن يحدث له ألم كبير، ومن هو الانسان الذي لا يعمل، دون أن يعلم، في صنع الألم الذي سيكون محور حياته ؟

للفلاحين الاسكتلنديين كلمة يمكن أن تنطبق على كل أنواع الوجود . فهم يسمون، في أساطيرهم،Fey حالة إنسان يجره نوع من دافع داخلي لا يقاوم، على الرغم من كل جهوده، وعلى الرغم من كل النصائح والنجدات، نحو كارثة محتومة، وعلى هذا النحو، كان جاك الأول، جاك كاترين دوغلاس، Fey بذهابه، على الرغم من النذر المخيفة للأرض والجحيم والسماء، لقضاء أعياد الميلاد في قصر بيرت القاتم حيث كان ينتظره قاتله، الخائن روبرت غريم. من منا، إذا كان يتذكر ظروف أكثر مصائب حياته حسماً، لم يشعر أنه مأخوذ بهذه الصورة ؟ من المفهوم

جداً أني لا أتحدث هنا، الا عن مصائب فعالة، عن تلك التي كان يمكن تجنبها، ذلك، أن هناك مصائب سلبية، كموت كائن معبود، تلتقينا ببساطة ولا يمكن أن يكون لحركاتنا أي تأثير فيها. تذكروا اليوم المشؤوم في حياتكم. من منا الذي قد أُنذر ؟ وعلى الرغم من أنه يبدو لنا، اليوم، أنه كان من شأن كل المصير أن يتغير بخطوة لم نقدم عليها، أبداً، بباب لم يفتح، بيد لم ترفع، من منا لم يصارع، عبثاً، دون قوة، ودون أمل على قمة جدران الهوة، ضد قوة غير مرئية وكانت تبدو دون قوة ؟

هبة الريح القادمة من الباب الذي فتحته ذات مساء كان عليها أن تطفىء الى الأبد سعادتي، كما كان من شأنها أن تطفىء مصباحاً واهناً. واليوم، عندما أفكر في ذلك، لا أستطيع أن أقول إنني لم أكن أعلم.. ومع ذلك، فلا شيء هام كان قد قادني حتى العتبة. كنت أستطيع المضي وأنا أهز كتفيّ، لم يكن أي سبب بشري يستطيع أن يجبرني على أن أطرق على المصراع، لم يكن هناك، أي سبب بشري، لم يكن يوجد سوى قدري.

* * *

هذا ما زال يشبه قدر أوديب، ومع ذلك، فهو فعلاً، شيء آخر. يمكن أن يقال أن هذا هو القدر مرئياً من الداخل. هناك قوى غامضة تسود فينا وتبدومتفقة مع المغامرات. نحن نحمل جميعاً، أعداءنا في نفوسنا. إنها تعلم ما تفعله وما تجعلنا نفعل، وعندما تقودنا الى الحدث، تنذرنا

بكلمتين، وهو أقل مما ينبغي لايقافنا على الطريق ولكنه كاف لجعلنا ننذم، عندما سيفوت الأوان، على عدم اصغائنا بمزيد من الانتباه الى نصائحها غير الحاسمة والساخرة . أين تريد هذه القوى التي ترغب في هلاكنا أن تصل، كما لوكانت مستقلة، ولا تموت معنا على الرغم من أنها لا تعيش إلا فينا ؟ ما الذي يحرك كل شركاء الكون الذين يتغذون من دمنا ؟

الانسان الذي دقت من أجله الساعة التعسة مخطوف في زوبعة لا ترى، ومنذ سنوات، تركب هذه القوى الحوادث التي لا تحصى التي يجب أن تؤدي به الى الدقيقة الضرورية، الى النقطة الدقيقة والتي تنتظره الدموع عندها . تذكروا جهودكم وتوجساتكم، تذكروا النجدات غير المجدية . تذكروا، أيضاً، الظروف الطيبة الرؤوف التي حاولت أن تسد أمامكم الطريق والتي صددتموها كمتسولات ثقيلات . كانت، مع ذلك، أخوات مسكينات وخجولات تريد إنقاذكم وابتعدت دون أن تقول شيئاً، لأنها أضعف وأصغر من أن تقاتل ضد أشياء تقررت حيث لا يعلم الا الله .

ما تكاد المصيبة تقع حتى يتكون لدينا إحساس غريب بأننا أطعنا قانوناً أزلياً، ويكافئنا على طاعتنا، في صميم أكبر الآلام، بما لا أدري من شعورنا بالعزاء . لا ننتمي الى أنفسنا، قط، بصورة أكثر حميمية منا غداة كارثة لا تعوض . يبدو إذ ذاك أننا نجد أنفسنا وأننا استعدنا جزءاً مجهولاً وضرورياً من وجودنا . تتحقق سكينة فريدة ،منذ أيام، وعن غير علم منا تقريباً، وبينما نستطيع أن نبتسم للوجوه والزهور، كانت قوى نفوسنا المتمردة تقاتل قتالاً مخيفاً على حافة الهوة، والآن،

ونحن في القاع كل شيء، يتنفس بحرية .

هكذا نقاتل بلا هوادة، في كل نفس من نفوسنا، ونرى، أحياناً، ولكن دون أن ننتبه، لأننا لا نفتح عيوننا الا على الأشياء التي لا أهمية لها، ظل هذه المعارك التي لا تستطيع إرادتنا التدخل فيها . إذا كنت مع أصدقاء، يمكن، وسط الأقوال ورنات الضحك، لشيء ليس من العالم العادي أن يمر، فجأة، على وجه أحدهم . إن صمتاً لا سبب له سيسود فجأة، والجميع سينظرون، دون أن يعرفوا ذلك، خلال لحظة، بعيون النفس . وبعد ذلك، تعود الابتسامات والكلمات التي اختفت كضفادع بحيرة مفزوعة، تعود الى الصعود بصورة أكثر عنفاً، الى السطح . ولكن المرئي، هنا وفي كل مكان، استرد جزيته . شيء ما قد فهم أن معركة قد انتهت، أن نجماً قد ارتفع أو هوى وأن مصيراً قد أتى على التثبت .

ربما كان مثبتاً، ومن يعلم ما إذا لم تكن المعركة تظاهراً . وإذا كنت أدفع، اليوم، باب البيت الذي يجب أن ألقى، فيه، أولى ابتسامات حزن لن يعود ينتهي، فإني أفعل هذه الأشياء منذ زمن أطول مما يظن . ما الفائدة من تنمية أنا ليس لنا عليها أي تأثير تقريباً ؟ إن ما ينبغي لنا ملاحظته هو نجمنا . إنه جيد أوسيىء، إنه شاحب أو قوي، وكل قوى البحر لن تستطيع أن تغير فيه شيئاً . بعضهم من الذين يمكن أن يثقوا به يلعبون معه كما بكرة زجاجية . إنهم يطلقونه ويجازفون به حيث يريدون . وسوف يعود، دائماً، أميناً الى أيديهم . إنهم يعلمون جيداً أنه لا يمكن أن ينكسر . ولكن هناك آخرين كثيرين لا يستطيعون أن يلقوا نظرة على نجمهم دون أن ينفصل عن العتبة الزرقاء، ويسقط غباراً عند أقدامهم .

ولكن التفكير في ذلك خطر لأنه غالباً ما يكون العلامة أنه على أهبة الانطفاء ..

نجد أنفسنا، هنا، في لجج الليل، ونحن ننتظر فيها ما يجب أن يحدث . لم يعد الأمر يدور حول إرادة، فنحن فوقها بألف ميل، وفي منطقة تكون فيها الإرادة، نفسها، أكثر ثمار القدر نضجاً . لا ينبغي أن نشكو من ذلك . فنحن نعلم، من قبل، شيئاً، وقد اكتشفنا بعض عادات المصادفة . نحن ننتظر كما يلاحظ قناص الطيور طباع الطيور المهاجرة، وعندما يعلن عن حدث في الأفق، فإننا لا نجهل أنه لن يبقى، فيه، وحيداً وأن إخوته ستسقط، جماعات، في الموضع نفسه . لقد تعلمنا، بصورة مبهمة، أنها تبدو مجذوبة ببعض الأفكار وبعض النفوس وأن هناك كائنات تحول طيرانها، كما أن هناك كائنات أخرى تجعلها تهرع من زوايا العالم الأربع .

نحن نعلم، خاصة، أن بعض الأفكار خطيرة الى أقصى حد، وأنه يكفي أن يخيل الى المرء أنه في مأمن من أجل استدعاء الصاعقة، وأن السعادة تشكل فراغاً لا تتأخر الدموع عن الانهمار فيه . وبعد بعض الوقت، نميز أيضاً، تفضيلاتها . سرعان ما نلاحظ أننا إذا خطونا بضع خطوات على درب الحياة الى جانب أحد إخوتنا، فإن عادات المصادفة لن تعود هي نفسها، في حين أن أحداثاً من طبيعة لا تتغير ستأتي، مع آخر، بانتظام لتلتقي بوجودنا . نحس أن هناك كائنات تحمي في المجهول، وأخرى توقعنا، لديه، في الخطر، أن هناك من تنيم المستقبل وأخرى توقظه . ونرتاب، أيضاً في أن الأشياء تولد ضعيفة، أولاً، وتستمد قوتها منا، وأن في كل مغامرة دقيقة قصيرة تعلمنا، فيها،

غريزتنا بأننا ما زلنا سادة القدر . وأخيراً، يجرؤ بعضهم على أن يؤكدوا لنا أنه يمكن أن نتعلم كيف نعيش سعداء، وأننا بقدر ما نصبح أفضل، نصادف بشراً يتحسنون، وأن كائناً يكون طيباً يجتذب، بصورة لا تقاوم، أحداثاً جيدة مثله، وأن أشد المصادفات حزناً تتحول، في نفس جميلة، الى جمال .

من هو الذي لم يحس أن الطيبة تشير الى الطيبة، وأن الأشخاص الذين نخلص لهم والأشخاص الذين نخونهم هم ذاتهم دائماً ؟ إذا قرع الألم نفسه بابين يتلامسان، فهل سيتصرف في البيت العادل والبيت الظالم بصورة متماثلة، وإذا كنت نقياً، ألن تكون مصائبك نقية ؟ أليست معرفة تحويل الماضي الى بضع ابتسامات حزينة قليلاً سيطرة على المستقبل ؟ ألا يبدو أننا نستطيع، في المحتوم نفسه، تأخير شيء ما ؟ ألا ترقد مصادفات كبرى توقظها حركة على أكثر مما ينبغي من الفجائية في الأفق، وهل كانت هذه المصيبة، اليوم، لو لم تحدث أفكار صاخبة أكثر مما ينبغي من الضجيج في نفسك هذا الصباح ؟ أهذا كل ما استطاعت حكمتنا أن تجمعه في هذه الظلمات ؟ من سيجرؤ، إذن، على أن يقول إن في هذه المناطق حقائق أشد ثباتاً ؟ وفي انتظار ذلك، يجب أن نعرف كيف نبتسم، يجب أن نعرف كيف نبكي في صمت طيبة متواضعة جداً . فوق هذه الأشياء يرتفع، شيئاً فشيئاً، وجه قدر اليوم غير المكتمل . إن قسماً صغيراً من الستار الذي كان يغطيه، سابقاً، قد أبعد، وتعرفنا في القسم المكشوف، دون أن يخلو ذلك من قلق، على قوة الذين لا يعيشون بعد، من جهة، وعلى قوة الأموات من الجهة الأخرى . وفي الحقيقة، لا يوجد سوى ابتعاد جديد للسر . لقد كبرنا يد

القدر الجليدية، وها هي أيدي أبنائنا الذين لم يولدوا بعد تنضم، في ظله، الى أيدي أجدادنا . كان هناك فعل كنا نظنه ملاذ كل حرياتنا، وبقي الحب الملجأ السامي لكل الذين يحسون بسلاسل الحياة بصورة أقسى مما ينبغي . هنا على الأقل، كما قلنا، وفي معتزل هذا الهيكل السري لا أحد يدخل معنا . هنا نستطيع أن نتنفس لحظة، هنا تسود نفسنا أخيراً ، وقد اختارت بحرية في ما هو مركز الحرية نفسه، الا أنه قيل، الآن، إننا لا نحب لحسابنا الخاص . قيل إننا نطيع، في هيكل الحب نفسه، الأوامر غير المتغيرة لحشد غير مرئي . قيل أننا بعيدون الف قرن عن أنفسنا عندما نختار حبيبتنا، وأن أول قبلة من الخطيب ليست سوى الخاتم الذي تطبعه الوف الأيدي التي تطلب الولادة على فم الأم التي يرغبون فيها . ومن جهة أخرى، نحن نعلم أن الأموات لا يموتون . نعلم، حالياً، أنهم لم يعودوا موجودين حول كنائسنا، بل في كل بيوتنا، في كل عاداتنا، وأنه ما من حركة، من فكرة، من خطيئة، من دمعة أو ذرة من الوعي المكتسب تضيع في أعماق الأرض، وأن أجدادنا ينهضون لدى أقل أفعالنا معنى، لا في قبورهم حيث لم يعودوا يتحركون، بل في أعماق ذواتنا حيث يعيشون دائماً .

وهكذا يقودنا الماضي والمستقبل، والحاضر الذي هو جوهرنا يسقط في قاع البحر كجزيرة صغيرة تقرضها، بلا هوادة، محيطات غير متوافقة . الوراثة، الارادة، المصير، كل ذلك يمتزج، بصخب، في نفوسنا . ولكن النجم الصامت هو الذي يسود على الرغم من كل شيء ، وفوق كل شيء . توضع بطاقات مؤقتة على أوعية عملاقة تحتوي على غير المرئي . والكلمات لا تقول شيئاً مما ينبغي أن يقال تقريباً . الوراثة أو القدر نفسه ليس

سوى شعاع ضائع لهذا النجم في الليل الغامض . لكل شيء حقاً، الحق في أن يكون أكثر غموضاً أيضاً . وقد قال أحد حكماء هذا الزمن : «نسمي قدراً كل ما يحدنا» . ومن أجل ذلك، يجب أن نكون ممتنين لكل الذين يتلمسون، مرتعشين، في جهة الحدود . ويضيف قائلاً : «إذا كنا قساة وبرابرة، فإن القدر يتخذ شكلاً قاسياً وبربرياً . وعندما نتهذب فإن ضروب فشلنا تتهذب أيضاً . إذا ارتفعنا الى ثقافة روحية، فإن التناقض يتخذ شكلاً روحياً». وربما كان صحيحاً أن نفوسنا تطهر القدر بمقدار ما ترتفع، على الرغم من أنه صحيح، أيضاً، إن الأحزان نفسها التي تهدد المتوحشين تهددنا . ولكن لدينا أحزاناً أخرى لا يرتابون في وجودها، ولا ترتفع الروح الا لتكتشف أخرى، أيضاً، في كل الآفاق . «نسمي قدراً كل ما يحدنا» . لنعمل على أن لا يكون القدر مفرط الضيق . وعبثاً ما يزيد المرء أحزانه على اعتبار أن توسيع وعيه هو المكان الوحيد الذي يحس، فيه، بالحياة . وهو أيضاً، الوسيلة الوحيدة لأداء واجبه الأسمى نحو العوالم الأخرى، على اعتبار أن على عاتقنا وحدنا، احتمالاً، يقع أمر زيادة وعي الأرض .

* * *

الطيبة غير المرئية

قال لي حكيم التقيته، مصادفة، ذات مساء، على ضفاف المحيط الذي ما كنا نكاد نسمعه : إنها شيء لا يرى ولا يبدو أن أحداً يعتمد عليه، ومع ذلك، فأنا أرى أنها إحدى القوى التي تحافظ على الكائنات . الآلهة التي ولدنا منها تتجلى، فينا، في الف صورة مختلفة، ولكن هذه الطيبة السرية التي لم نلاحظها والتي لم يتحدث عنها أحد بصورة على ما يكفي من المباشرة ربما كانت أنقى علامة على حياتها الأزلية . لا نعرف من أين تأتي . إنها هنا ببساطة، تبتسم على عتبة نفوسنا والذين تبتسم فيهم أعمق ابتسام وأكثره تواتراً سيجعلوننا نعاني ليل نهار، لو أرادوا دون أن يمكننا التوقف عن حبهم ...

ليست من هذا العالم، ومع ذلك فهي تمتزج بمعظم إشاراتنا : إنها لا تتجشم حتى عناء الظهور في نظرة أو دمعة . إنها تختبىء، على العكس من ذلك، لأسباب لا نحزرها . يمكن أن يقال أنها تخاف من استعمال قوتها . إنها تعلم أن أكثر حركاتها لا إرادية سوف تولد حولها أشياء خالدة، ونحن ضنينون بالأشياء الخالدة . لماذا إذن، نخشى استنضاب السماء التي فينا ؟ لا نجرؤ على أن نتصرف كما يريد الله

الذي يحيينا، نخاف ما لا يفسر بحركة أو كلمة، ونغمض عيوننا عما نفعله على الرغم منها في الامبراطورية التي تكون ،فيها، التفسيرات نافلة . من أين يأتي، إذن، الخجل من الإلهي في البشر ؟ يمكن أن يقال، حقاً، إنه كلما زاد اقتراب حركة للنفس من الإلهي زدنا اعتناء بإخفائها عن أنظار إخوتنا . أليس الانسان سوى إله يخاف ؟ أم أنه ممنوع علينا أن نخون قوى عليا ؟ كل ما لا ينتمي الى هذا العالم المرئي أكثر مما ينبغي يملك التواضع الحنون لبنت صغيرة معاقة لا تدعوها أمها عندما يدخل أغراب الى المنزل . ومن أجل ذلك، لم تجتز طيبتنا السرية، أبداً، حتى الآن، الأبواب الصامتة، لنفوسنا . إنها تعيش فينا كسجينة منع عليها الاقتراب من القضبان .وفضلاً عن ذلك لا ينبغي أن تقترب منها . يكفي أن تكون هناك . عبثاً ما تختبىء، فمنذ أن ترفع رأسها، تحرك حلقة من قيودها، أو أن تفتح يدها، حتى يتنور السجن وتنفرج الكوى تحت إضاءات الأنوار الداخلية، وتكون هناك، فجأة، هوة مليئة بالملائكة المهتاجة بين الأقوال والكائنات، ويصمت كل شيء، وتتحول النظرات لحظة، وتتعانق نفسان باكيتين عند العتبة .

ليست شيئاً يأتي من أرضنا، وكل الأوصاف لن تجدي فتيلاً . يجب أن يكون للذين يريدون أن يفهموني، أيضاً، في ذواتهم، النقطة الحساسة نفسها . إذا لم تكن قد عانيت في الحياة قوة طيبتك غير المرئية، فلا تتقدم أكثر من ذلك، فلن يكون هذا مجدياً . ولكن، هل هناك، حقاً، من لم يعانوا هذه القوة ؟ ألم يكن أسوأ من فينا طيباً بصورة لا مرئية قط ؟ لا أعلم . هناك الكثير من الكائنات التي لا تفكر في هذا العالم، بشيء آخر خلاف احباط الإلهي في نفوسهم . إلا أنه تكفي لحظة توقف من

أجل أن يستقيم الإلهي، وأكثر الناس شراً لا يكونون، هم أنفسهم، متيقظين باستمرار، ومن أجل ذلك، دون شك، يكون كثير من الأشرار طيبين دون أن يرى ذلك، في حين أن كثيراً من الحكماء وكثيراً من القديسين ليسوا طيبين بصورة غير مرئية .....

أضاف قائلاً : «لقد سببت العذاب أكثر من مرة كما يسبب كل كائن العذاب حوله . سببت العذاب لأننا في عالم يقف فيه كل شيء بخيوط غير مرئية، في عالم ما من شخص وحده فيه، ولأن أعذب بادرة للطيبة أو للحب غالباً ما تجرح الكثير من البراءة الى جانبنا ! سببت العذاب، أيضاً، لأن أفضل الأشخاص وأكثرهم حناناً يحتاجون، أحياناً، الى البحث عن قسم لا أدري ما هو من ذواتهم في ألم الآخرين . هناك، حقاً، بذور لا تنتش في نفوسنا الا تحت مطر الدموع التي تنتشر بسببنا . ومع ذلك، فهذه البذور تنتج زهوراً طيبة وثماراً يانعة . ماذا تريد ؟ إنه قانون لم نصنعه، ولا أدري إذا كنت سأجرؤ على حب الانسان الذي ما أبكى أحداً . الذين يحبون أفضل الحب غالباً ما يكونون من سببوا القدر الأكبر من العذاب لأننا لا نعرف ما هي تلك القسوة الحنون والخجول التي تكون عادة، شقيقة الحب القلقة . الحب يبحث في كل مكان على براهين عن الحب، وهذه البراهين الأولى، من هو ذاك الذي لا يميل الى إيجادها، أولاً في دموع المحبوبة ؟ .

الموت نفسه لا يستطيع أن يكفي لطمأنينة العاشق إذا كان يجرؤ على الاصغاء الى مقتضيات الحب، لأن لحظة الموت تبدو أقصر مما ينبغي لقسوة الحب الحميمة . ما وراء الموت، ما زال هناك مكان لبحر من الشكوك، والذين يموتون معاً ربما لا يموتون دون قلق . تلزم، هنا، دموع

طويلة وبطيئة . الألم هو أول غذاء للحب، وكل حب لم يتغذَ بشيء من الألم النقي يموت كما الوليد الذي تراد تغذيته كما يغذى رجل . هل ستحب بالصورة نفسها تلك التي تبتسم لك دائماً وتلك التي تبكيك أحياناً ؟ يجب، للأسف، أن يبكي الحب، وأن يبكي غالباً جداً، وفي البرهة نفسها التي يرتفع، فيها، الاجهاش في البكاء تصنع قيود الحب وتُسقى للحياة ... تابع يقول : وهكذا سببت العذاب لأني كنت أحب . وسببت العذاب، أيضاً، لأني لم أعد أحب . ولكن، ما الفرق بين العذابين ؟ هنا يبدو على دموع الحب المعانى أنها تعلم فعلاً، أنها كانت تروي في نفسينا المتصلتين شيئاً لا يوصف، وهناك تعرف هذه الدموع المسكينة من جهتها، أنها كانت تسقط، وحدها، على الصحراء ولكني تعرفت، في هذه البرهات التي تكون، فيها، النفس، حقاً، كلها آذان، أو كلها نفوس بالأحرى، على قوة طيبة غير مرئية كانت تعرف كيف تمنح دموع الحب التعسة الأوهام الإلهية للحب الذي سيولد . الم تعرف، قط، واحداً من هذه الأمسيات التي لم تعد القبلات المحبطة، فيها، تستطيع أن تبتسم وحيث شعرت النفس أخيراً، أنها مخدوعة ؟ لم تعد الأقوال ترن الا بمشقة كبيرة في جو الانفصال النهائي البارد . كنتما ستتباعدان الى الأبد، وكانت اليدان اللتان فقدتا الحياة تقريباً تمتدان نحو وداع الرحيل بلا عودة عندما أجرت النفس، فجأة، على ذاتها حركة لا تفهم . استيقظت النفس المجاورة، فوراً، على قمم الوجود، كان يولد شيء، أعلى بكثير من حب العاشقين المتعبين، وعبثاً ما يتباعد الجسدان، فلن تنسى النفسان بعد الآن، إنهما نظرتا الى بعضهما لحظة من فوق الجبال التي لمترياها أبداً، وأنهما كانتا، في فسحة غمضة عين، طيبتين طيبة

لم تكونا تعرفانها بعد ...

ما هي، إذن، هذه الحركة الغامضة التي لا أتحدث عنها هنا الا بمناسبة الحب، ولكنها يمكن أن تحدث في أصغر ظروف الحياة ؟ أهي ما لا أدري من تضحية أو احتضان داخلي، الرغبة العميقة جداً في الكون نفساً لنفس أم الشعور الذي يرق، دون انقطاع، بفعل حضور حياة غير مرئية ومساوية لحياتنا ؟ أهي كل ما هناك من رائع وحزين في واقعة الحياة نفسها، ووجه الحياة الواحدة وغير القابلة للقسمة التي تغمر في هذه البرهات كل وجودنا ؟ أجهل ذلك، ولكن هذا هو حقاً، الوقت الذي نحس، فيه، إن هناك في مكان ما قوة مجهولة، إننا كنوز إله لا أدري من هو، يحب كل شيء، وأنه ما من حركة من هذا الإله تمر غير مرئية وأننا أخيراً، في منطقة الأشياء التي لا تخون ...

صحيح أننا لا نخرج، قط، من الولادة الى الموت، من هذه المنطقة النهائية، ولكننا نتوه في الله كمسرنمين مساكين، أو كعميان يبحثون بوله عن الهيكل الذي يوجدون فيه . نحن هنا، في الحياة، إنساناً لانسان، نفساً لنفس، والأيام والليالي تنقضي تحت السلاح . لا نرى بعضنا، لا نلمس بعضنا، لا نرى أبداً، سوى دروع وخوذات ولا نلمس شيئاً، سوى الحديد والبرونز . إلا أنه إذا أسقط ظرف صغير جاء من بساطة السماء الأسلحة لحظة، ألا تكون هناك دموع تحت الخوذة وابتسامات طفل وراء الدرع، وهل لا نلمح حقيقة أخرى ؟

فكر، أيضاً، ثم استأنف بصورة أكثر حزناً : امرأة عذبتها على الرغم مني - لأن أكثر الناس تنبهاً ينشرون حولهم العذاب دون أن يعلموا - وأعتقد أني حدثتك عن ذلك، هذه المرأة كشفت لي ذات مساء عن القوة

السامية لهذه الطيبة غير المرئية . يجب أن يكون المرء قد عانى العذاب من أجل أن يكون طيباً، الا أنه ربما يجب أن يسبب العذاب ليصبح الأفضل . أحسست بهذا في ذلك المساء . كنت أحس أني وصلت وحيداً الى منطقة القبلات الحزينة هذه التي يبدو، فيها، أننا نزور، فعلاً، أكواخ الفقراء، في حين ما زالت الحبيبة المتأخرة تبتسم في تصور الأيام الأولى . كان الحب على طريقة البشر يموت بيننا كطفل أصابه داء لا ندري من أين أتى ولا يمكن أن يشفى . لم نقل لبعضنا شيئاً . بل لن أستطيع أن أتذكر بماذا كنت أفكر في تلك البرهة البالغة الرزانة . كانت أشياء تافهة دون شك . ربما كنت قد فكرت في آخر وجه صادفته ،في الضياء المرتعش في مصباح في زاوية الرصيف المقفر، ومع ذلك حدث كل شيء في نور الف مرة أنقى، الف مرة أعلى كما لو أن كل قوى الرأفة والحب التي أتحكم، فيها، في أفكاري وقلبي قد تدخلت . لقد تركنا بعضنا دون أن نقول شيئاً، ولكننا فهمنا، في الوقت نفسه، فكرتنا التي لا يعبر عنها . نعلم، الآن، أنه قد ولد حب آخر لم يعد يحتاج الى أقوال، الى رعاية الحب العادي وابتساماته . لم نعد نرى بعضنا، وربما لن نعود نرى بعضنا قبل قرون . سوف ينبغي، دون شك، نسيان أشياء كثيرة، وتعلم أشياء أخرى من خلال كل العوالم التي سيكون علينا أن نمر بها قبل أن نجد أنفسنا في حركة النفس ذاتها التي حدثت في ذلك المساء، ولكن لدينا وقت للانتظار ...

ولذلك حييت، منذ ذلك الوقت، في كل مكان، وحتى في صميم أشق البرهات، الحضور الرقيق لهذه القوة الرائعة . يكفي أن نكون قد رأيناها، بوضوح، مرة واحدة، من أجل أن لا نعود نستطيع تجنب وجهها .

سوف ترونها غالباً، في المعتزلات الأخيرة للكراهية وحتى في صميم أقسى الدموع . ومع ذلك، فهي لا تظهر لعيني جسدنا . ومنذ أن تتجلى بفعل خارجي، تغير طبيعتها ولا نعود، بعد، في الحقيقة بموجب النفس بل في نوع من أكذوبة على طريقة البشر . ليس للطيبة والحب اللذين يجهلان بعضهما أي تأثير في النفوس لأنهما خرجا من الممالك التي يعيشان فيها، ولكنهما يستطيعان أن ينتظرا حتى القدر نفسه ما داما أعميين . عرفت أكثر من رجل كان ينجز كل أعمال الطيبة والرحمة دون أن يبلغ نفساً واحدة، وعرفت آخرين كان يبدو أنهم يعيشون في الأكذوبة والظلم دون أن يبعدوا هذه النفوس ذاتها ودون أن يولّدوا لحظة واحدة، فكرة عدم كونهم طيبين . وهناك ما هو أكثر من ذلك . فالذين لم يعرفوك، أبداً، والذين تروى لهم، ببساطة، أعمال طيبتك وأفعال حبك سوف يرتابون في شيء ما، إذا لم تكن طيباً حسب الطيبة غير المرئية، ولن يمسّوا أبداً، في أعماق وجودهم . ذلك كما لو كان هناك، في مكان ما، يوزن فيه كل شيء في حضور الأرواح، أو أن هناك، في الجانب الآخر من الليل، خزان موثوقات سيمضي قطيع النفوس الأبكم ليشرب منه كل صباح .

ربما لم يفهم، بعد، معنى كلمة حب . في حياتنا حيوات نحب، فيها، دون أن نعلم . الحب على هذا النحو ليس، فقط، الإشفاق، التضحية بالذات داخلياً، الرغبة في المساعدة والإسعاد، إنه شيء الف مرة أعمق لا تستطيع أحلى الكلمات البشرية وأرشقها وأقواها أن تبلغه . يقال، أحياناً، إنه ذكرى آبقة، ولكنها نافذة الى أقصى الحدود، للوحدة البدائية الكبيرة . هناك في هذا الحب قوة لا شيء يمكن أن يقاومها . من منا إذا

سأل في جانب الأنوارالذي لا ينظر اليه عادة، لا يجد في ذاته ذكرى بعض الأعمال الغريبة لهذه القوة ؟ من منا لم يشعر فجأة الى جانب كائن ربما كان لا أهمية له، بحدوث شيء لم يستدعه أحد ؟ هل هي النفس أم الحياة التي ترتد على ذاتها كنائم يستيقظ ؟ لا أدري، ولا تعرفون ذلك، أنتم أيضاً، ولم يتحدث عنه أحد، ولكنكم لا تنفصلون كما لو أن شيئاً لم يحدث .

الحب هو الحب حسب النفس ولا توجد نفس لا تستجيب لهذا الحب : ذلك أن النفس البشرية مدعو جائع منذ قرون، ولا ينبغي، أبداً أن يدعى الى مأدبة الزوابع مرتين .

كل نفوس اخوتنا تحوم، دون انقطاع، حولنا ساعية وراء قبلة ولا تنتظر الا إشارة . ولكن، كم من كائنات لم تجرؤ، قط، على إبداء واحدة من هذه الإشارات في حياتها ! إن بلية كل وجودنا هي أننا نعيش على هذا النحو، في معزل عن نفوسنا وأننا نخاف من أدنى حركاتها . لو كنا قد سمحنا لها بأن تبتسم صراحة في صمتها ونورها لعشنا، فعلاً، حياة أزلية . يكفي أن نتأمل، لحظة، ما تتوصل الى صنعه في الدقائق النادرة التي لا نفكر، فيها، في تقييدها كمجنونة، في الحب، مثلاً، عندما ندعها، أحياناً، تقرب من سياجات الحياة الخارجية . وهلا يجب، بموجب الحقيقة الأولى، في الحياة، أن تحس كل الكائنات، حيالنا، إحساس الحبيبة حيال الحبيب ؟

هذه الطيبة غير المرئية والإلهية التي لا أتحدث هنا، عنها الا لأنها إحدى أوثق العلامات وأقربها من فعالية نفوسنا تضفي النبل، بصورة نهائية، على كل مستوى دون أن تعلم . فلينزل كل من يشكون من كائن

الى ذواتهم وليتساءلوا عما إذا كانوا، قط، طيبين في حضور هذا الكائن . أما أنا، فإني لم أصادف أبداً، أحداً شعرت، الى جانبه، بتحرك طيبتي، غير المرئية ولم يصبح، في اللحظة نفسها أفضل مني . كونوا طيبين في أعماقكم وسترون أن الذين يحيطون بكم سيصبحون طيبين حتى الأعماق نفسها . لا شيء يستجيب ،حتماً، لصرخة الطيبة السرية سوى الصرخة السرية للطيبة المجاورة . وحين تكونون طيبين طيبة فعالة في غير المرئي، سوف يقوم كل الذين يقاربونكم، دون أن يعلموا بأشياء لم يستطيعوا القيام بها الى جانب إنسان آخر . هناك قوة لا اسم لها، خصومة روحية لا يمكن مقاومتها . يمكن أن يقال أنه توجد هنا، بالضبط، أكثر نقاط نفوسنا حساسية، لأن هناك نفوساً يبدو أنها نسيت أنها موجودة، وأنها تخلت عن كل ما يرفع كائناً ما، الا أنها تعود الى الانتصاب، كلها، إذا مست في هذا الموضع . وأبسط النفوس لا تتحمل في الميادين الالهية للطيبة السرية، الهزيمة .

ومع ذلك، فمن الممكن أن لا يتغير شيء في الحياة التي نراها . ولكن، هل هذا وحده، المهم ؟ الا نوجد، حقاً، الا بأفعال يمكن أخذها باليد كحجارة الطريق الكبيرة ؟ يقال لنا : إذا تساءلتم كما يجب أن تتساءلوا كل مساء : ماذا فعلت من أشياء خالدة اليوم؟ فهل أن جهة الأشياء التي يمكن أن تعد ويفكر فيها وتقاس دون خطأ هي الجهة التي يجب البحث فيها أولاً ؟ من الممكن أن تنشروا دموعاً خارقة للعادة، أن تملؤوا قلباً بموثوقات غريبة وأن تردوا الحياة الأزلية الى نفس دون أن يلحظ أحد ذلك، دون أن تعلموا، أنتم بذاتكم، بما فعلتم . من الممكن أن لا يتغير شيء، من الممكن أن ينهار كل شيء أمام الامتحان، وأن تسقط

هذه الطيبة أمام أدنى خوف . لا أهمية لذلك . لقد حدث شيء إلهي، ويجب أن يكون إلهنا قد ابتسم في مكان ما . أليس الهدف الأسمى للحياة أن يعاد على هذا النحو، توليد غير القابل للتفسير فينا، وهل نعرف ما نضيفه الى أنفسنا عندما نستيقظ قليلاً من غير المفهوم الذي ينام في كل الزوايا ؟ هنا أيقظتم الحب الذي لا يعود الى النوم . النفس التي نظرت اليها نفسك والتي ذرفت معك دموع الفرح الرسمي الذي لا نراه لن تحقد عليك وسط العذاب، بل إنها لن تحتاج الى المغفرة . إنها واثقة مما لا ندري الى حد لن يستطيع شيء بعد الآن محو ابتسامتها الداخلية أو جعلها تشحب، لأن لا شيء سيستطيع الفصل بين نفسين «كانتا طيبتين معاً» لحظة .

* * *

حسن أن يذكر البشر بأن أكثرهم تواضعاً «يستطيع أن ينحت، انطلاقاً من نموذج إلهي لا يختاره، شخصية أخلاقية كبيرة مركبة من جزئين متساويين منه ومن المثل الأعلى، وأن ما يعيش في واقعية تامة هو هذا بالتأكيد» .

يجب أن يجد كل إنسان لذاته إمكانية خاصة لحياة عليا في الواقع اليومي المحتوم والبسيط . وما يميز بعضنا عن بعضنا الآخر هو علاقاتنا باللامتناهي . البطل ليس أكبر من البائس الذي يسير الى جانبه الا لأنه، في برهة ما من وجوده، وعى وعياً شديداً واحدة من هذه العلاقات . وإذا كان صحيحاً أن الخلق لا يتوقف عند البشر وأن كائنات عليا وغير مرئية تحيط بنا، فإن هذه الكائنات ليست أعلى منا الا لأن لها مع اللامتناهي علاقات لا نستطيع حتى الارتياب بوجودها .

يمكننا مضاعفة هذه العلاقات، في حياة كل إنسان يوم انفتحت، فيه، السماء من تلقاء ذاتها، والى اللحظة يعود، دائماً تقريباً، تاريخ الشخصية الروحية الحقيقية لكائن ما . إن هذه اللحظة هي التي تكوّن فيها، دون شك، الوجه غير المرئي والأزلي الذي نظهره، دون أن ندري،

للملائكة والنفوس . ولكن السماء لا تنفتح هكذا، بالنسبة لمعظم الناس، الا مصادفة . فهم لم يختاروا الوجه الذي تتعرف عليهم به، الملائكة في اللامتناهي، ولا يعرفون إضفاء النبل على سماته وتطهيرها . إنهم لم يولدوا إلا من فرح، من حزن، من رعب أو من فكرة طارئة .

نولد ،حقاً، في اليوم الذي نحس فيه، للمرة الأولى، بعمق، بأن هناك شيئاً خطيراً وغير متوقع في الحياة . بعضنا يتبين، فجأة ،أنهم ليسوا الوحيدين تحت السماء . ويلاحظ الآخرون، فجأة، وهم يعطون قبلة أو يذرفون دمعة، إن «ينبوع كل ما هو أفضل وأقدس، من الكون الى الله، مخبوء وراء ليل مليء بنجوم أبعد مما ينبغي» . ورأى فريق ثالث يداً إلهية تمتد بين فرحه وشقائه، وفهم آخر أن الموتى على صواب . إن آخر قد أشفق وآخر قد أعجب، وثالثاً قد خاف . وفي غالب الأحيان، لا يلزم شيء تقريباً : كلمة، حركة، شيء صغير ليس حتى فكرة، يقول أحد أبطال شكسبير أمام فعل أعجب به : «في السابق، كنت أحبك كأخ، والآن أنا أحترمك كنفسي» . من الممكن أن يكون كائن قد جاء في ذلك اليوم، الى العالم .

يمكننا أن نولد، على هذا النحو، أكثر من مرة، وفي كل واحدة من هذه الولادات نقترب قليلاً من إلهنا . ولكننا نكتفي كلنا، بانتظار أن يدخل حدث مليء بنور لا يقاوم، بعنف في ظلماتنا وينورنا على الرغم منا . ننتظر ما لا أدري من مصادفة سعيدة تتفتح فيها عيون نفوسنا صدفة في البرهة التي يحصل لنا، فيها، شيء خارق . ولكن هناك نوراً في كل ما يحدث، وأعظم الرجال لم يكونوا عظماء الا لأنهم اعتادوا على فتح عيونهم على كل الأنوار . هل من الضروري، إذن، أن تحتضر

أمك بين ذراعيك، وأن يهلك أبناؤك في غرق وأن تنتقل، أنت نفسك، الى جانب الموت من أجل أن تعلم، أخيراً، أنك في عالم غير مفهوم، يوجد، فيه، دائماً، ويبقى، فيه، إله لا نراه، وحده، مع مخلوقاته ؟ هل من الضروري، إذن، أن تموت خطيبتك في حريق أو أن تختفي تحت أبصارك في أعماق المحيط الخضراء من أجل أن تلمح، لحظة، إنه ربما مضت الحدود الأخيرة لمملكة الحب الى ما وراء لهب ميرا وألتابير غير المرئية ،تقريباً. وشعر بيرنييس، بكثير ؟ لو كنت قد فتحت عينيك، أما كنت استطعت أن ترى في قبلة ما تراه، اليوم، في كارثة، هل يجب أن يوقظ الألم، على هذا النحو، بطعنات رمح، الذكريات الإلهية التي ترقد في نفوسنا ؟ لا يحتاج الحكيم الى هزات. إنه ينظر الى دمعة الى حركة عذراء، الى قطرة ماء تسقط، ويصغي الى فكرة تمر، الى ضغطة يد أخ، ويقترب من شفة مفتوح الشفتين ومفتوح النفس أيضاً . يستطيع أن يرى فيها ما لم تروه الا لحظة، وسوف تعلمه ابتسامة، دون عناء، ما وجب أن تكشفه لكم عاصفة ويد الموت نفسه .

ذلك أن ما هو، في الصميم، كل ما يسمى «حكمة» .. «فضيلة» . «بطولة» و «الساعات السامية والبرهات الكبيرة» في الحياة، إن لم تكن البرهات التي خرجنا فيها خروجاً متفاوتاً من ذواتنا واستطعنا أن نتوقف فيها، وإن لم يكن ذلك الا دقيقة واحدة، عند عتبة أحد الأبواب الأزلية التي نرى، فيها، أن أصغر صرخة، أبهت فكرة، وأضعف حركة لا تقع في العدم . إنها إذا وقعت فيه، فإن هذا السقوط هو من الكبر بحيث يكفي لإعطاء طابع جليل لحياتنا ؟ لماذا تنتظرون أن تفتح القبة على قصف الصاعقة ؟ يجب أن ينتبه المرء الى الدقائق السعيدة التي

تنفتح، فيها بصمت، وهي تنفتح باستمرار . إنكم تبحثون عن حياتكم وتقولون لنا أن الله لا يظهر . ولكن أية حياة ليس فيها الوف الساعات الشبيهة بساعة هذه المأساة التي ينتظر الجميع، فيها، التدخل الالهي، وحيث لا يراه أحد حتى تتجلى، فجأة، فكرة غير مرئية قلبت وعي محتضر وأن يهتف عجوز مجهشاً في البكاء فرحاً وذعراً : «ولكن الله، هو ذا الله» .

هل يجب، دائماً، أن ننذر، وهلاّ نستطيع أن نجثو ما لم يكن أحد هناك ليقول لنا، أن الله يمر ؟ إذا أحببت بعمق، فلا ينبغي أن يكون أحد قد جعلك تلاحظ أن نفسك كانت شيئاً في كبر العوالم، وأن النجوم والأزهار وموجات الليل ولجج البحر لم تكن وحيدة . إن شيئاً لا ينتهي وإن كل شيء يبدأ عند عتبة المظاهر وأن الشفتين اللتين تقبلهما كانتا، هما ذاتهما، تخصان كائناً أعلى بكثير، أجمل بكثير، أنقى بكثير من الذي تضمه بذراعيك . لقد رأيت، إذ ذاك ما لا نراه في الحياة دون نشوة . ولكن، ألا يمكن العيش كما لوكنا نحب دائماً ؟ لم يفعل الأبطال والقديسون شيئاً آخر . آه ! حقاً كنا ننتظر أكثر مما ينبغي في الوجود. كعميان الأسطورة الذين كانوا قد قاموا بسفرة طويلة من أجل أن يأتوا لسماع الله . كانوا قد جلسوا على الدرجات، وعندما كان يسألهم أحد ماذا كانوا يفعلون في فناء المعبد، كانوا يجيبون هازين رؤوسهم «ننتظر، والله لم يقل، بعد كلمة واحدة» ولكنهم لم يروا أن أبواب الهيكل الفولاذية كانت مغلقة ولم يكونوا يعلمون أن صمت إلههم كان يملأ البناء . إلهنا لا ينقطع أبداً عن الكلام، ولا يفكر واحد في أن يشق الأبواب، الا أنه لن يكون صعباً، إذا أردنا أن ننتبه الى ذلك، أن نسمع،

بصدد كل فعل، الكلمة التي يجب أن يقولها الله .

نعيش، جميعاً، في السمو، في أي شيء . إذن ،تريدون أن نعيش ؟ لا مكان آخر للحياة . ما ينقصنا ليس فرص الحياة في السماء، إنه الانتباه والخشوع، وهذا قليل من نشوة النفس . إذا لم يكن لديكم سوى غرفة صغيرة، أتعتقدون أن الله ليس هناك أيضاً، وأن من المستحيل أن تعاش فيها حياة عالية قليلاً ؟ إذا شكوت من كونك وحدك، من كون شيء لا يحدث لك، من أن أحداً لا يحبك من أنك لا تحب أحداً، هل تعتقد أن الكلمات لا تخدع ؟ وأن من الممكن أن تكون وحيداً، أن يكون الحب شيئاً نعرفه، شيئاً نراه، وأن توزن الأحداث كذهب الأتاوات وفضتها ؟ ألا تستطيع فكرة حية - سواء اكانت شامخة أم صغيرة، فلا أهمية للأمر، فهي كبيرة من أجلك منذ أن تأتي من نفسك - الا تستطيع رغبة عليا أو بكل بساطة، لحظة انتباه رسمي الى الحياة، أن تدخل غرفة صغيرة ؟ وإذا كنت لا تحب، وإذا لم تكن محبوباً، وكنت تستطيع، مع ذلك أن ترى ببعض القوة أن الف شيء جميل، أن النفس كبيرة، والحياة جليلة بصورة لا توصف تقريباً، أليس هذا جميلاً كما لو كنت تحب وتكون محبوباً ؟ وإذا كانت السماء نفسها مخفية عنك، والشاعر يقول : «ألا تمتد السماء الكبيرة ذات النجوم، على الرغم من كل شيء، فوق نفسك على صورة الموت ؟ ... » كل ما يحدث لنا كبير إلهياً، ونحن في مركز عالم كبير دائماً . الا أنه ينبغي أن نتعود العيش كملاك أتى على الولادة، كامرأة تحب أو كرجل سوف يموت . إذا علمت أنك ستموت هذا المساء أو أنك، ببساطة، ستبتعد الى الأبد، فهل سترى، مرة أخيرة، الكائنات والأشياء كما رأيتها حتى ذلك اليوم ؟ ألن

تحب كما لم تحب قط ؟ هل طيبة المظاهر أم خبثها هي التي ستكبر حولك ؟ هل جمال النفوس أم قبحها هو الذي سيتاح لك أن تراه ؟ الا يتحول كل شيء حتى الشر نفسه والآلام، آنذاك، الى حب مليء بدموع عذبة جداً ؟ الا تنتزع كل فرصة غفران، كما قال حكيم، شيئاً من مرارة الرحيل أو مرارة الموت ؟ ومع ذلك أفي اتجاه الحقيقة أم في اتجاه الخطأ قمنا، في أضواء الحزن، أو الموت هذه، بالخطوات الأخيرة التي يسمح لنا بالقيام بها ؟

هل الأحياء أم المحتضرون هم الذين يعلمون والذين هم على صواب ؟ آه :طوبى للذين فكروا، للذين تكلموا، للذين تصرفوا بشكل يتلقون، معه، قبول الذين سيموتون، أو الذين جعلهم ألم كبير متبصرين ! ما من مكافأة أعذب للحكيم الذي لم يكن أحد يصغي اليه في الحياة . إذا عشت في الجمال الغامض، فلا تقلق. ساعة عدالة قصوى تنتهي، دائماً، بالطرق على باب قلب كل إنسان . والمصيبة تفتح عيوناً لم تكن تنفتح أبداً . من يعلم ما إذا كنت لا تمر في هذه البرهة على نفس محتضر كظل من كان يعرف الحقيقة من قبل ؟ اليس على سرير المحتضرين يضفر احتمالاً التاج الحقيقي، أثمن تاج للحكيم، للبطل، ولكل الذين عرفوا كيف يعيشون برصانة في الأحزان العليا النقية والخفية للحياة حسب النفس ؟ .

يقول لافاتر : «الموت لا يجمّل شكلنا غير الحي فقط . ولكن فكرة الموت، وحدها ، تعطي شكلاً أجمل للحياة نفسها » . وكذلك فكل فكرة لا متناهية كالموت تجمل حياتنا . الا أنه لا ينبغي أن نخدع بذلك . فلكل إنسان أفكار نبيلة تمر كطيور كبيرة بيضاء على قلبه » .

وللأسف، لا يحسب لها حساب . إنها غريبات يدهش المرء لرؤيتها ويبتعد عنها بحركة مزعوجة . ولا يكفي، كي تكون نفوسنا جليلة وعميقة كنفوس الملائكة، أن نلمح، لحظة الكون في ظل الموت أو الأزلية، في نور الفرح أو في لهب الجمال والحب . حدثت لكل كائن بعض هذه البرهات التي لم تترك فيه سوى حفنة من رماد غير مفيد . لا تكفي صدفة، تلزم عادة . يجب أن نتعلم العيش في الجمال والجلال المألوفين . في الحياة، تميز أدنى الكائنات تمييزاً كاملاً الشيء النبيل والجميل الذي يجب عمله . ولكن هذا الشيء النبيل والجميل لا يملك فيهم ما يكفي من القوة . إن هذه القوة غير المرئية والمجردة هي التي يجب أن نبذل جهدنا في زيادتها مقدماً . وهذه القوة لا تزيد الا لدى الذين اعتادوا أن يجلسوا أكثر من الآخرين على القمم التي تكسب الحياة، فيها، النفس والتي يرى منها أن كل فعل وكل فكرة مرتبطان، حتماً، بشيء كبير وخالد . انظروا الى البشر والأشياء حسب شكل عيونكم الداخلية ورغبتها، ولكن لا تنسوا، أبداً، أن الظل الذي تسقطه لدى مرورها فوق الهضبة أو فوق الجدار ليس سوى الصورة العابرة لظل أقوى يمتد كجناح بجعة لا يهلك فوق كل نفس تقترب من نفسها . لا تظنوا أن مثل هذه الأفكار هي ببساطة زينات، وأنه ليس لها أي تأثير على حياة الذين يقبلونها . وأهمية تحول الحياة أقل بكثير من رؤيتها، لأنها تتحول من تلقاء ذاتها منذ أن تُرى . هذه الأفكار التي أتحدث عنها تشكل الكنز السري للبطولة واليوم الذي ترغمنا، فيه ،الحياة على فتح هذا الكنز، يدهشنا أن لا نعود نجد، فيه، قوى أخرى خلاف تلك التي تدفعنا نحو الجمال الكامل . لن يعود يلزم، إذ ذاك سوى أن يموت

ملك كبير ليذكرنا، «بأن العالم لا ينتهي عند أبواب البيوت» . وأصغر شيء يكفي لاسباغ النبل على نفس كل مساء .

ولكنكم لن تعيشوا في الجمال والأعماق الخصيبة التي عاش، فيها، الأبطال بقولكم إن الله كبير وبتحرككم في ضيائه . من الممكن أن تتذكروا، صباحاً ومساء، أن أيدي كل القوى غير المرئية كخيمة بطيات لاتحصى فوق رؤوسكم دون أن تلمحوا، أبداً، أدنى حركة من هذه الأيدي . يجب أن يكون المرء ناجع التنبه، والسهر في الميدان العام أفضل من النوم في الهيكل .هناك جمال وعظمة في كل شيء، على اعتبار أنه يكفي ظرف غير متوقع لجعلنا نراها . معظم الناس يعرفون ذلك، لكنهم عبثاً يعرفون، فهم لا يحومون، الا تحت سوط القدر أو الموت، حول جدار الوجود بحثاً عن صدوع بصدد الله . إنهم لا يجهلون أن هناك صدوعاً أزلية في الجدران المسكينة لكوخ، وأن أصغر قطع الزجاج لا تنتزع خطاً أو نجماً من المسافات السماوية الشاسعة . الا أن امتلاكنا حقيقة لا يكفي، فيجب أن تمتلكنا الحقيقة .

ومع ذلك، فنحن في عالم ترتدي، فيه، أدنى الأحداث، دون جهود، جمالاً متزايد النقاء ومتزايد السمو . لا شيء يمتزج بسهولة امتزاج الأرض والسماء، وإذا كنت قد نظرت الى النجوم قبل أن تقبل حبيبتك، فإنك لن تقبلها بالطريقة نفسها التي تقبلها بها لو كنت نظرت الى جدران غرفتك . كن واثقاً من أنك في اليوم الذي توقفت، فيه، لمتابعة شعاع نور عبر أحد شقوق باب الحياة، قمت بشيء في عظمة تضميدك لجراح عدو، لأنه لم يعد لك، في تلك اللحظة، عدو .

يجب على المرء أن يعيش متربصاً بإلهه لأن الإله يختبىء، ولكن

مكائده تبدو، عندما تكتشف، باسمة وبسيطة الى حد فائق . ومنذ ذلك الحين، يكشف لنا أدنى الأشياء عن حضوره، وعظمة حياتنا تقوم على قليل جداً من الأشياء . وهكذا نجد لدى الشعراء بيتاً هنا وهناك، وسط أحداث متواضعة في أيامنا العادية، يبدو أنه يفتح، فجأة، شيئاً عظيماً. لم يجر التلفظ بأية كلمة رسمية، ويمكن أن يقال أن شيئاً ما لم يستدع، ومع ذلك، فلماذا يشير لنا وجه لا يوصف من وراء دموع عجوز، ولماذا ينتشر ليل مسكون بملائكة حول ابتسامة طفل، لماذا قلنا لأنفسنا، بصدد نعم أو لا تتلعثم بها نفس تغني وهي تعمل في أي شيء اخر، فجأة وما بين أنفاسنا لحظة : «هنا بيت الله، وهذا أحد مداخل السماء» ؟ .

ذلك أن هؤلاء الشعراء كانوا أكثر انتباهاً منا «للظل الذي لا ينتهي» والشعر السامي ليس، في الصميم، الا هذا، وليس له من هدف سوى الابقاء على «الطرق الكبيرة التي تقود مما نراه الى ما لا نراه» مفتوحة . ولكن هذا هو الهدف الأعلى للحياة، وبلوغه في الحياة أسهل بكثير من بلوغه في أنبل القصائد لأنه كان على القصائد أن تتخلى عن جناحي الصمت الكبيرين . لا توجد أيام صغيرة . يجب أن تنزل هذه الفكرة في حياتنا وأن تتحول فيها، الى جوهر . لا يدور الأمر حول دموع، فكل ذلك يشغل النقطة نفسها في المكان والزمان . تستطيع أن تلعب في الحياة ببراءة «طفل حول سرير ميت»، وليست الدموع هي التي تكون ضرورية . الابتسامات، كالدموع، تفتح أبواب العالم الآخر . اذهب، تعال، اخرج، وسوف تجد ما يلزمك في الظلمات، ولكن لا تنس أبداً أنك قرب الأبواب .

* * *

بعد هذه الانعطافة الطويلة، أعود الى نقطة انطلاقي، أي، الى، أنه حسن أن نذكر البشر بأن أكثرهم تواضعاً يستطيع أن ينحت، انطلاقاً من نموذج إلهي لا يختاره، شخصية، أخلاقية كبيرة مركبة من جزئين متساويين منه ومن المثل الأعلى . الا أن هذه «الشخصية الأخلاقية الكبيرة» لم تنحت قط، الا في أعماق الحياة . واحتياطي المثل الأعلى الضروري لا يزيد الا بفضل «اكتشافات للإلهي» لا تنقطع . كل إنسان يستطيع أن يصل بالروح الى قمم الحياة الفاضلة، وأن يعرف ماذا ينبغي أن يفعل ليتصرف كبطل أو قديس . ولكن ذلك ليس المهم، فيجب أن يتحول الجو الروحي حولنا الى حد ينتهي معه الى التشابه مع جو بلدان عصر سويدنبورغ الذهبي الجميلة التي لا يسمح، فيها، الهواء للأكذوبة بأن تخرج من الفم . وتصل، إذ ذاك، لحظة يسقط، عندها، أي شر نريد اقترافه على أقدامنا ككرة رصاصية على صفيحة برونزية، ويتغير، فيها، كل شيء تقريباً . على غير علم منا، الى جمال، الى حب والى حقيقة . ولكن هذا الجو لا يشتمل الا على الذين اعتنوا بتهوية حياتهم مرات كافية بشقهم أحياناً أبواب العالم الآخر . قرب هذه الأبواب نرى، قرب هذه الأبواب نحب، لأن محبة القريب ليست، فقط، اعطاء النفس كاملة للآخرين وخدمتهم ومساعدتهم ونجدتهم . من المحتمل أن لا ترى طيباً ولا جميلاً ولا نبيلاً وسط أكبر التضحيات، وراهبة المحبة التي تموت عند رأس سرير مسلول قد تملك نفساً حقوداً، صغيرة وبائسة . محبة القريب في الأعماق المستقرة هي محبة كل ما هو أزلي في الآخرين، لأن القريب هو، بامتياز، من يقترب أشد الاقتراب من الله، أي مما هو نقي وطيب في البشر، ولن تكتشفوا ما يوجد من إلهي في

النفوس الا بوقوفكم، دائماً، حول الأبواب التي حدثتكم عنها منذ قليل . وعند ذلك تستطيعون أن تقولوا مع القديس بولس الكبير : «عندما أريد أن أحب بحنان كبير شخصاً عزيزاً وأغفر له كل شيء، لا يكون علي، الا أن أنظر، بعض الوقت، بصمت» . يجب أن نتعلم أن نرى كي نتعلم كيف نحب . قال لي صديق، ذات يوم : «عشت خلال أكثر من عشرين سنة الى جانب شقيقتي ورأيتها، للمرة الأولى لدى موت أمنا» . لقد اقتضى الأمر، هنا أيضاً، أن يفتح الموت ، بعنف، باباً أزلياً، من أجل أن ترى نفسان بعضهما في شعاع من النور البدائي . هل هناك واحد منكم لم تحط به شقيقات لم يرهن ؟

لحسن الحظ، هناك دائماً، لدى هؤلاء الذين يرون الأقل، شيء يتصرف بصمت كما لو كانوا قد رأوا . من الممكن أن لا تكون الطيبة الا امتلاك قليل من الضياء، ذلك أن الجميع في الظلمات . لهذا، دون شك ، من المفيد أن نبذل جهدنا لرفع حياتنا وأن ننزع نحو القمم التي تبلغ، فيها، استحالة اساءة الفعل . ولهذا السبب، من المفيد تعويد العين على النظر الى الأحداث والناس في جو إلهي . لكن هذا نفسه ليس ضرورياً . وكم يجب أن يبدو الفرق، في نظر إله، صغيراً ! نحن في عالم تسود، فيه، الحقيقة صميم الأشياء، ولا تكون، فيه، الحقيقة، بل الأكذوبة، هي التي تحتاج الى تفسير . إذا أحزنتك سعادة أخيك، فلا تحتقر نفسك . لن يكون أمامك درب طويل تقطعه لتجد في نفسك شيئاً لن يُحزن . وإذا لم تقطع الدرب، فلا أهمية للأمر، فشيء ما لم يحزن .

الذين لا يفكرون في شيء يملكون الحقيقة نفسها التي يملكها من

يفكرون في الله . إنها أقل قرباً بقليل من العتبة . وهذا هو كل شيء . يقول رينان : «نصيب الأشياء التي تصنع من أجل الله عظيم حتى في أكثر أنواع الحياة ابتذالاً . أحط الناس يفضل أن يكون عادلاً على أن يكون ظالماً، ونحن، جميعاً، نتعبد، نصلي عدة مرات في اليوم دون أن نعلم» ، ونحن ندهش حين تكشف لنا مصادفة، فجأة، عن أهمية هذا النصيب الإلهي . هناك، حولنا ، ألوف وألوف من الكائنات المسكينة التي لم تشاهد جميلاً في كل وجودها . إنهم يذهبون ويجيئون في الظلام . يُظن أن كل شيء ميت، لا أحد ينتبه الى ذلك . ثم، ها هي، في ذات يوم، كلمة بسيطة، صمت غير متوقع، دمعة صغيرة تأتي من ينابيع الجمال نفسها، تعلمنا أنهم وجدوا وسيلة ليشيدوا ، في ظل نفوسهم، مثلاً أعلى وأجمل بألف مرة من أجمل الأشياء، التي سمعتها آذانهم ورأتها عيونهم . آه ! أيتها المثل العليا النبيلة والشاحبة للصمت والظل ! أنت خاصة، التي توقظين ابتسامات الملائكة وتصعدين، مباشرة ،نحو الله . في أية أكواخ لا تحصى، في أية غرف بؤس، وربما في أية سجون، لا يغذونك، في هذه اللحظة، بأنقى دم لنفس مسكينة لم تبتسم قط ؟ وكما أن النحل يستمر، حين تكون كل الزهور قد ماتت حوله، في تقديمه لتلك التي يجب أن تكون ملكته عسلاً أثمن بألف مرة من العسل الذي تعطيه لأخواتها الصغيرات في الحياة اليومية ... من منا لم يصادف أكثر من مرة، على طول طرقات الحياة، نفساً مهجورة لم تكن فقدت، مع ذلك، الشجاعة كي ترضع على هذا النحو، في الظلمات، فكرة أكثر ألوهية ونقاء من تلك التي سنحت لآخرين كثيرين

فرصة الذهاب لاختيارها في النور ! هنا، أيضاً، البساطة هي التي تكون العبدة المحظية من الله، ربما يكفي أن لا يجهل، قط، بضعة حكماء ما يجب فعله من أجل أن يتصرف الباقون ما يعلمون به بدورهم .

* * *

الجمال الداخلي

لا شيء في العالم أكثر نهماً الى الجمال، لا شيء في العالم يتجمل في يسر تجمل نفس . لا شيء في العالم يرتفع بصورة أكثر طبيعية ويتجمل بسرعة أكبر . لا شيء في العالم يطيع، بمزيد من الدقة، الأوامر النبيلة التي تعطى له . لا شيء في العالم يعاني، بمزيد من الانصياع، سيطرة فكرة أعلى من الأخرى . لذلك، فنفوس قليلة على الأرض تقاوم سيطرة نفس تدع نفسها أن تكون جميلة .

يمكن أن يقال، أن الجمال هو الغذاء الوحيد لنفوسنا . إنها تبحث عنه في كل مكان ولا تموت جوعاً حتى في أدنى حياة . ذلك أنه ما من جمال يمر دون أن يلاحظ كلياً . يمكن أن لا يمر، قط الا في اللاشعور، ولكنه يتصرف في الليل بقوة تصرفه في وضح النهار . إنه يجلب، فيه، فرحاً، أقل قابلية للفهم، وهذا هو الفرق الوحيد . افحصوا أكثرالناس عادية عندما يأتي قليل من الجمال ليلامس ظلماتهم . إنهم هنا متجمعون في أي مكان، وعندما يوجدون مجتمعين دون أن يعرف لماذا، يبدو أن همهم الأول هو إغلاق أبواب الحياة الكبيرة أولاً . إلا أن كلاً منهم عاش عندما كان وحده، نفسه أكثر من مرة . ربما يكون قد أحب . لقد تألم دون شك .

لقد سمع، هو أيضاً، حتماً، «أصوات قارة الروائع والمخاوف البعيدة» وعرف، في أمسيات كثيرة، كيف ينحني في صمت أمام قوانين أعمق من البحر. ولكنهم يحبون، عندما يكونون معاً، أن يسكروا بأشياء دنيئة .

إنهم يعانون مالا أدري من خوف غريب من الجمال . وكلما زاد عددهم زاد خوفهم، كما لو كانوا يخافون من الصمت أو من حقيقة أنقى مما ينبغي . وهذا صحيح الى درجة أنه إذا اتفق لأحدهم أن يقوم، نهاراً، بفعل شيء بطولي، فإنه سيبذل جهده للاعتذار عنه بنسبته الى دوافع بائسة، الى دوافع يأخذها من المنطقة السفلى التي تتجمع فيها . ولكن، استمعوا : لقد جرى التلفظ بكلمة عالية وفخور أعادت فتح ينابيع الحياة نوعاً ما . لقد تجرأت نفس على أن تظهر لحظة، كما هي في الحب، في الألم، أمام الموت، أو العزلة في حضور نجوم الليل . هناك قلق، والوجوه تدهش أو تبتسم . ولكن، ألم تحسوا، قط، في هذه البرهات، بأية قوة إجماعية تعجب كل النفوس بالكلمة التي تعرفت على كونها مشابهة لها، وكيف تقر أضعفها، بصورة لا توصف، في أعماق سجنها هذه الكلمة ؟

إنها تعود الى العيش، فجأة، في جوها البدائي والطبيعي . وإذا كانت لك أذنا ملاك، فإنني واثق من أنك سوف تسمع تصفيقات قوية جداً في مملكة الأنوار المدهشة التي تعيش هذه النفوس بينها . هل تعتقد أن أكثر النفوس خوفاً لا تكتسب شجاعة إذا جرى التلفظ بكلمة مماثلة كل مساء، وأن البشر لن يعيشوا بصورة أكثر حقيقة ؟ بل إنه لا يلزم أن تعود كلمة مماثلة . لقد حدث شيء عميق سيترك آثاراً عميقة جداً . النفس التي تلفظت بهذه الكلمة، ستعرف كل مساء، من جانب اخواتها،

وحضورها، وحده، سيضع بعد ذلك الحين، ما لا أدري من جليل تحت أكثر الأحاديث تفاهة . حدث، على كل حال تغير لا يمكن تحديده . لن تعود للأشياء الداخلية القوة الحصرية نفسها، والنفوس الفزعة تعرف أن هناك، في مكان ما، ملاذاً .

من المؤكد أن العلاقات الطبيعية والبدائية بين نفس ونفس هي علاقات جمال . الجمال هو لغة نفوسنا الوحيدة ... وهي لا تعرف لغات أخرى، وليست لها حياة أخرى، ولا تستطيع إنتاج شيء آخر، لا تستطيع الاهتمام بشيء آخر . ومن أجل ذلك، تصفق أكثر النفوس تعرضاً للقمع، بل وأحطها، إن سمح بالقول إن هناك نفوساً منحطة، فوراً، لكل فكرة، لكل كلمة، لكل فعل كبير وجميل . فليس لها عضو يربطها بعنصر آخر ولا تستطيع أن تحكم إلا بموجب الجمال . أنت تراها كل لحظة في حياتك، وأنت نفسك الذي أنكرت الجمال أكثر من مرة، تعلم ذلك كالذين يبحثون عنه باستمرار في قلوبهم . إذا احتجت ذات يوم الى كائن آخر، حاجة عميقة، فهل ستذهب الى الذي ابتسم ابتسامة بائسة عندما كان الجمال يمر ؟ هل ستذهب الى الذي لوّث بهزة رأس عملاً كريماً أو، ببساطة، اتجاهاً نقياً وربما كنت تفعل، ولكنك، في هذه البرهة الخطيرة التي تقرع فيها الحقيقة بابك، سوف تلتفت نحو هذا الآخر الذي عرف كيف ينحني ويحب . نفسك كانت قد حكمت في أعماقها، وحكمها الصامت والمعصوم هو الذي ربما عاد، بعد ثلاثين سنة الى السطح، وأرسل بك نحو أخت هي أنت ، أكثر منك كلك، لأنها كانت أقرب الى الجمال .

يلزم القليل من الأشياء لتشجيع الجمال في نفس . يلزم القليل من

الأشياء لإيقاظ الملائكة النائمة . ربما لا ينبغي الايقاظ - يكفي، ببساطة، أن لا ننيم، ربما لم يكن الارتفاع، بل النزول، هو الذي يطلب الجهود . ألا يلزم جهد لعدم التفكير الا بأشياء ضحلة أمام البحر أو حيال الليل ؟ وأية نفس لا تعلم أنها دائماً، أمام البحر، ودائماً في حضور ليل أزلي ؟ لو كنا أقل خوفاً من الجمال فسوف نصل الى عدم ايجاد شيء آخر في الحياة لأنه لا يوجد، في الحقيقة، سوى هذا تحت كل ما نراه . كل النفوس تعرف ذلك، كل النفوس مستعدة، ولكن أين التي لا تخفي جمالها ؟ الا أنه ينبغي أن «تبدأ» إحداها . لماذا لا نجرؤ على أن نكون تلك التي «تبدأ» وكل الأخرى هنا، نهمة حولنا كأطفال صغار أمام قصر رائع . إنهم يتزاحمون على العتبة ، يهمسون ،ينظرون بين الشقوق، ولكنهم لا يجرؤون على دفع الباب . ولكن الشخص الكبير لا يمر أبداً تقريباً .

ومع ذلك، ما الذي ينبغي لتصبح الشخص الكبير الذي نأمل فيه ؟ لا شيء تقريباً . النفوس ليست ذات مطالب . إن فكرة جميلة، تقريباً، لا تقولها وتغذيها في هذه البرهة تنيرك كوعاء شفاف . إنها تراك وتستقبلك بصورة مختلفة جداً عنها إذا كنت تفكر في خداع أخيك . ندهش عندما يقول لنا بعض الناس إنهم لم يصادفوا قط قبحاً حقيقياً وإنهم لا يزالون لا يعرفون ماذا تعني نفس منحطة . ولكن هذا ليس مدهشاً . «كانوا قد بدأوا» . ولأنهم كانوا، هم أنفسهم، أولى الجميلين، استدعوا اليهم كل جمال كان يمر، كما تدعو منارة السفن من زوايا الأفق الأربع . هناك من يشكون من النساء، مثلاً، ولا يفكرون أنه تكفي، في المرة الأولى التي تصادف فيها امرأة، كلمة واحدة، فكرة

واحدة، تنكر ما هو جميل، وما هو عميق لتسميم وجودك في نفسها الى الأبد . ليس هناك الا شيء واحد لا تغفره النفس هو أن تكون مرغمة على النظر الى فعل، الى كلمة أو فكرة قبيحة، على أن تحتك بها، وتشارك فيها . إنها لا تستطيع أن تغفر ذلك، لأن الغفران، هنا، هو إنكار ذلك . ومع ذلك الا يعني كونك بارعاً، قوياً، حاذقاً، في نظر معظم الناس، إبعادك، قبل كل شيء، كل نفسك من حياتك، الا يعني ابعاد كل الاتجاهات البالغة العمق بعناية ؟ إنهم يتصرفون على هذا النحو في الحب نفسه، ومن أجل ذلك، ليس للمرأة التي هي أقرب الى الحقيقة أيضاً، أبداً تقريباً، لحظة حياة حقيقية معهم . يمكن أن يقال إن المرء يخاف من أن يلحق نفسه، ويعتني بأن يقف على مسافة الف ميل من جمالها . ينبغي، على العكس من ذلك، أن يحاول المرء أن يسير أمام ذاته . فكّر أو قل، في هذه البرهة، أشياء أجمل من أن تكون حقيقية فيك ، سوف تكون حقيقية غداً إذا حاولت أن تفكر فيها أو أن تقولها هذا المساء . فلنحاول أن نكون أجمل من أنفسنا ، أن نتجاوز نفوسنا . نحن نخطىء عندما يدور الأمر حول جمال صامت ومخبوء . وفضلاً عن ذلك، فلا يهم، الا قليلاً، أن يخطىء المرء أو أن لا يخطىء منذ أن يكون الينبوع الداخلي صافياً جداً . ولكن، من الذي يفكر في أدنى جهد لا نراه ؟ ومع ذلك، فنحن هنا في مجال كل شيء فيه ناجع، لأن كل شيء ينتظر . كل الأبواب مفتوحة، ما علينا سوى دفعها، والقصر مليء بالملكات المقيدات . غالباً جداً ما تكفي واحدة لكنس جبال من الأقذار . لماذا لا تكون لنا الشجاعة لمجابهة سؤال منحط بإجابة نبيلة ؟ هل تعتقدون أن هذا لا يقترب أكثر من الحوار الطبيعي لنفسين ؟

لا نعلم ما إذا كان هذا يشجع أو يخلص . حتى الذي يرفض هذه الاجابة يخطو خطوة، على الرغم منه، نحو جماله الخاص . الشيء الجميل لا يموت دون أن يكون قد طهر شيئاً ما . مامن جمال يضيع . لا ينبغي الخوف من زرعه على كل الطرقات . فسوف يبقى، فيها، أسابيع، سنوات، ولكنه لا ينحل أكثر من الماس، وسوف ينتهي أحدهم الى أن يمر وسيراه يشع ويلمه ويمضي به سعيداً . لماذا إذن توقف في نفسك كلمة جميلة وسامية . لأنك تعتقد أن الآخرين لن يفهموك ؟ لماذا، إذن، تعيق لحظة طيبة عليا كانت تولد لأنك تعتقد أن من يحيطون بك لن يفيدوا منها ؟ لماذا، إذن، تقمع حركة غريزية لنفسك نحو الأعالي لأنك بين جماعة الوادي ؟ هل يفقد شعور عميق تأثيره في الظلمات ؟ أليس للأعمى وسائل أخرى خلاف عينيه ليميز من يحبونه من الذين لا يحبونه ؟ هل يحتاج الجمال أن يُفهم من أجل أن يوجد، وفضلاً عن ذلك، فهل تعتقد أنه لا يوجد في كل إنسان شيئاً يفهم ما وراء ما يبدو عليه أنه يفهمه بكثير، ما وراء ما يظن أنه هو عليه، أيضاً، بكثير ؟ الجمال يكف عن أن يكون شيئاً ميتاً نريه للغرباء، بل يتخذ، فجأة حياة ملحة، وتصبح فعاليته طبيعية الى درجة لا يعود شيء يقاومه . ولهذا، فكر في ذلك، ليس المرء وحده، ويجب أن يسهر الطيبون .

يخلص أفلوطين، في الكتاب الثامن من التساعية الخامسة، بعد أن تحدث عن «الجمال المفهوم» أي الإلهي، الى ما يلي : «فيما يتعلق بنا، نحن جميلون حين ننتمي الى نفسنا، وقبيحون عندما ننحدر الى طبيعة دنيا . نحن جميلون، أيضاً، حين نعرف أنفسنا، وقبيحون، عندما نجهلها» . الا أنه يجب أن لا ننسى أننا، هنا. ليس جهل الذات،

ببساطة ،عدم معرفة ما يحدث فينا عندما نكون عاشقين أو غيورين، خجولين أو حسودين، سعداء أو أشقياء . جهل الذات، حيث نحن، هو جهل ما يجري من إلهي في البشر . نحن قبيحون حين نبتعد عن الآلهة الذين هم فينا، ونصبح جميلين بقدر ما نكتشفهم . ولكننا لن نجد الالهي في الآخرين الا باظهارنا لهم، أولاً، الالهي فينا نحن أنفسنا . يجب، أن يشير أحد الآلهة للإله الآخر، وكل الآلهة يستجيبون لأقل الاشارات ظهوراً . لن نفي إعادة قول ذلك حقه أكثر مما ينبغي، فلا ينبغي أكثر من شق غير مرئي تقريباً من أجل أن تدخل مياه السماء الى نفس الانسان . كل الكؤوس ممدودة نحو الينبوع المجهول، ونحن في مكان لا نفكر، فيه، الا في الجمال . ولو كان يمكن أن يُسأل ملاك عما تفعله نفوسنا في الظل، فإني أعتقد أنه سيجيب بعد أن ينظر الى السنوات الطويلة احتمالاً ما وراء ما يبدو عليه أنه يفعله في نظر البشر : «إنها تحول الى جمال الأشياء الصغيرة التي تعطى لها . آه ! يجب أن نعترف بأن للنفس البشرية شجاعة فريدة !» إنها ترضى بالعمل ليلة كاملة في الظلمات التي يردها اليها معظمنا وحيث لا يكلمها أحد . إنها تفعل فيها ما تستطيع دون أن تشكو، وتسعى الى أن تنتزع من الحجارة التي يلقى بها عليها نواة نور أزلي ربما احتوت عليه . وبينما هي تكد، ترقب البرهة التي ستستطيع أن تظهر، فيها، لأخت أحب اليها، وأقرب مصادفة، الكنوز الشاقة التي كدستها . الا أن هناك الوف الحيوات التي لا تزورها، فيها، أية أخت، وجعلتها الحياة فيها خجولة الى حد تمضي معه، دون أن تقول شيئاً، ودون أن تكون قد استطاعت أن تتزين مرة واحدة بأكثرجواهر تاجها المتواضعة تواضعاً .

وعلى الرغم من كل شيء، فهي تسهر على كل الأشياء في سمائها غير المرئية . إنها تنبه، تحب، تعجب، تجتذب، تصد، ولدى كل حدث جديد، تعاود الصعود الى السطح في انتظار أن ترغم على النزول لأنها تعد متطفلة ومجنونة . إنها تتوه مثل كاساندرا تحت بوابة الأتريديين . وهي تقول، فيها، باستمرار، أقوالاً ليست الحقيقة نفسها سوى ظل لها، ولا أحد يصغي اليها . لو رفعنا عيوننا، فإنها تنتظر شعاع شمس أونجم تريد أن تصنع منه فكرة أو اتجاهاً لاشعورياً ونقياً جداً . وإذا لم تحمل اليها عيوننا شيئاً، فسوف تعرف كيف تحول خيبتها المسكينة الى شيء لا يوصف سوف تخفيه حتى الموت . إذا أحببنا، فهي تسكر بالنور وراء الباب المغلق، ولا تضيع، مع تغذيتها الأمل، الساعات، وهذا النور الذي يرشح من الشقوق يصبح طيبة، جمالاً أو حقيقة بالنسبة اليها . أما إذا لم يفتح الباب (وفي أي عدد من أنواع الوجود يفتح) فإنها تعود الى سجنها، وربما سيكون أسفها حقيقة أعلى لن نراها أبداً لأننا في مكان التحولات التي لاتوصف، وما لم يولد في هذا الجانب من الباب ليس مفقوداً، ولكنه لا يمتزج بهذه الحياة .

كنت أقول، منذ قليل، إنها تحول الى جمال الأشياء الصغيرة التي تعطى لها . بل إنه يبدو، بقدر ما نفكر في ذلك، إنه ما من مبرر آخر لوجودها، وأن كل فعاليتها تستخدم في جمع كنز جمال لا يمكن أن يوصف في أعماقنا . ألن يتحول كل شيء، بصورة طبيعية، الى جمال إذا لم نقم بالارباك المستمر لعمل نفوسنا العنيد ؟ الا يصبح الشر نفسه ثميناً عندما ستتخلص منه ماسة الندم العميقة ؟ ألن تنتهي المظالم التي اقترفتها والدموع التي نشرتها، هي أيضاً ،الى أن تصبح ذات يوم، نوراً

وحباً ؟ هل نظرت، قط، الى نفسك في مملكة اللهب المطهرة هذه ؟ لقد سببوا لك شراً كبيراً اليوم، الحركات كانت صغيرة، العمل كان منحطاً وحزيناً . وأنت قد بكيت في القبح . ومع ذلك، تعال لتلقي نظرة في نفسك، بعد بضع سنوات، وقل لي إذا كنت لا ترى تحت ذكرى هذا الفعل شيئاً أنقى، فعلاً، من فكرة، ما لا أدري من قوة لا يمكن أن تسمى، لا علاقة لها بكل القوى العادية لهذا العالم، ما لا أعلم من ينبوع «حياة أخرى» سوف تستطيع أن تشرب منه دون أن ينضب حتى أيامك الأخيرة . ومع ذلك، فإنك لم تساعد الملكة التي لا تتعب، وكنت تفكر في شيء آخر بينما كان الفعل يتطهر، خفية عنك، في صمت وجودك، ويأتي ليزيد المياه الثمينة في هذا الخزان الكبير للحقيقة أو الجمال الذي يتعكر مثل الخزان الأقل عمقاً، خزان الأفكار الحقيقية، أو الجميلة، ولكنه يبقى دائماً، في مأمن ،من هبة الحياة .

يقول أمرسون : «ما من واقعة، ما من حدث لن يفقد، عاجلاً، أوآجلاً، شكله الساكن اللزج، والذي لن يدهشنا في صعوده، في صميم جسدنا، في موطن الآلهة» . وهذا صحيح الى درجة أعلى، أيضاً، مما كان أمرسون قد توقعه احتمالاً، ذلك أننا نكتشف حلقات أكثر إلهية كلما تقدمنا في هذه الأمكنة .

هذه الفعالية الصامتة للنفوس التي تحيط بنا، لا نعلم ما هي . لقد قلت كلمة لكائن لم يفهمها . لقد ظننت أنها ضاعت ولم تعد تفكر فيها . ولكن الكلمة تعود، ذات يوم، مصادفة، الى الصعود مع تحولات غريبة، ويمكن أن نرى الثمار غير المتوقعة التي حملتها في الظلمات، ثم يعود كل شيء الى السقوط في الصمت . ولكن، ما هي أهمية ذلك ؟ نتعلم

أن لا شيء يفقد في نفس وأن لأصغرها، أيضاً، لحظات بهاء . لا ينبغي أن نخطئ، فلأشقى الناس بالذات، ولأكثرهم حرماناً، على الرغم منهم، في أعماق نفوسهم، كنز جمال لا يستطيعون افقاره . الأمر يدور، ببساطة، حول اكتساب عادة الاستمداد منه . يجب أن لا يبقى الجمال عيداً معزولاً في الحياة، بل أن يصبح عيداً يومياً . ولايلزم المرء جهد كبير ليقبل بين الذين «لا تدخل الأرض المزهرة والسماوات الفاقعة، في نظرهم، على أجزاء متناهية الصغر، بل كتلة سامية» . وأناأتحدث عن زهور وسماوات أكثر ديمومة وأنقى من التي نراها . هناك ألف قناة يمكن للنفس أن تصعد من خلالها، الى أفكارنا . هناك، خاصة، قناة الحب الرائعة والمركزية .

أليس الحب هو الذي توجد، فيه، أنقى عناصر الجمال التي نستطيع تقديمها للنفس . توجد كائنات تتبادل على هذا النحو، الحب في الجمال . وهكذا، فإن الحب هو فقدان القبح شيئاً فشيئاً، إنه أن يصبح المرء أعمى عن كل الأشياء الصغيرة وعدم رؤية شيء خلاف نضارة أكثر النفوس تواضعاً وعذريتها . وهكذا، فإن الحب هو أن لا تعود هناك حاجة حتى الى المغفرة . وهكذا، فإن الحب، هو أن لايعود المرء قادراً على الإخفاء لأنه لم يعد هناك شيء لا تحوله النفس الحاضرة دائماً الى جمال . وهكذا، فإن الحب هو أن لا يعود الشر يرى الا للتسامح وتعلّم عدم الخلط بين الخاطىء وخطيئته . وهكذا، فإن الحب هو أن نرفع، في ذواتنا، كل الذين يحيطون بنا الى مرتفعات لا يعودون يستطيعون، فيها، أن يزلوا ويجب أن يسقط فيها كل عمل منحط من ارتفاع يسلم، معه، عندما يلقى الأرض، على الرغم منه، نفسه الماسية .وهكذا فإن

الحب هو تحويل أصغر النوايا التي تسهر حولنا، دون أن نعلم، الى حركات غير محدودة . وهكذا، فإن الحب هو دعوة كل ما هناك من جميل على الأرض، في السماء، وفي النفس إلى مأدبة الحب ، وهكذا، فإن الحب هو أن نوجد أمام كائن، كما نوجد أمام الله . وهكذا، فإن الحب هو استدعاء حضور النفس وكل كنوزها لدى أدنى بادرة . لم يعد يلزم الموت والمصائب أو الدموع من أجل أن تظهر النفس . تكفي ابتسامة . وهكذا، فإن الحب هو تبين الحقيقة في السعادة بالعمق الذي تبينها به بعض الأبطال على أضواء أكبر الآلام . وهكذا، فإن الحب هو أن لا يعود المرء يستطيع أن يقول أين ينتهي شعاع نجم وأين تبدأ قبلة فكرة مشتركة . وهكذا، فإن الحب هو الوصول الى جوار الله الى درجة تملكك معها، الملائكة . وهكذا، فإن الحب هو أن نجمّل معاً النفس ذاتها التي تصبح شيئاً فشيئاً الملاك الوحيد الذي يتحدث عنه سويدنبورغ . وهكذا، فإن الحب هو أن تكتشف، كل يوم، جمالاً جديداً في هذا الملاك الغامض، وهو السير معاً في طيبة متزايدة الحياة ومتزايدة الارتفاع - لأن هناك أيضاً طيبة ميتة ليست مصنوعة الا من ماضٍ . ولكن الحب الحقيقي يجعل الماضي غير مجدٍ ويخلق لدى اقترابه مستقبلاً لا ينضب من طيبة دون مصائب ودون دموع . وهكذا، فإن الحب هو أن يحرر المرء نفسه ويصبح في جمال نفسه المحررة . يقول أفلوطين الكبير، بصدد أشياء مماثلة : «إذا كنت لا تعلن، في الانفعال الذي يجب أن يسببه لك هذا المشهد الذي هو، من بين كل أنواع الفطنة التي أعرفها، ما اقترب من الألوهية أشد الاقتراب، إذا لم تعلن، في الانفعال الذي يجب أن يسببه لك هذا المشهد، إنه جميل فعبثاً ما سوف تبحث . في مثل هذا

الترتيب عن الجمال المفهوم . ذلك أنك لن تبحث عنه الا بما هو غير نقي وقبيح . هذا هو السبب الذي لا تتوجه الخطابات التي ندلي بها ، هنا ، الى كل البشر . أما إذا عرفت الجمال في ذاتك فارتفع الى تذكر الجمال المفهوم .... »

* * *

قراءة في الكتاب

بقلم : ألبرت سبينيت
دكتورة في الفلسفة والآداب

مصير الكتب لا يقل غموضاً عن مصير الكائنات . فيتفق لبعضها أن ينام طويلاً وراء أبواب موصدة، في حين تطير أخرى أكثر حظاً، نحو الفضاء، كطيور بيضاء كبيرة . من سيقول لنا ما هو سر هذين القدرين المتباينين ؟ لماذا تبقى بعض الأفكار مقيدة في كهوف مظلمة، في حين تأتي أخرى لتعمر ليالينا بملائكة غامضة ؟

كنز البسطاء كان واحداً من هذه الأخيرة . عندما صدر هذا الكتاب عام ١٨٩٦ ، لاقى نجاحاً الى حد كان على الناشر، ميركور دوفرانس، أن يعيد طباعته سبع مرات في السنة نفسها . كان أول أكثر كتب ماترلنك مبيعاً .

ومع ذلك، لم يكن الكتاب جديداً إطلاقاً : فمعظم الفصول التي تشكله كانت قد نشرت في المجلات بين ١٨٩٢ و١٨٩٥ . ولكنه جاء في برهة كان ماترلنك قد أنتج، فيها ، الأساسي من مسرحه الرمزي وغزا جمهوراً واسعاً . تعب من كوميديات الطباع وتنبه الى هذا الصوت الجديد الذي كان ينشر فوق هوات المصير الشباك البيضاء الكبيرة لأبياته

اللاذعة وحواراته التي لا تستوعب . ولم يكن مقال أوكتاف ميربو الذي نشر على الصفحة الأولى من جريدة **الفيغارو** في ٢٤ آب ١٨٩٠، والذي كان يرى في **الأميرة مالين** «أكثر أعمال هذا الزمان عبقرية وخروجاً على المألوف وأكثرها سذاجة أيضاً، وعملاً قابلاً للمقارنة مع أجمل ما لدى شكسبير وأجرؤ على القول أنه متفوق عليه في الجمال» . لم يكن هذا المقال قليل الاسهام في فتح أبواب النجاح أمام الفتى المجهول .

ومضى هذا النجاح متزايداً مع نشر الدرامات الرمزية: **الدخيلة** (١٨٩٠)، **العميان** (١٨٩٠)، **الأميرات السبع** (١٨٩١)، وخاصة **بيلياس وميليزانو** (١٨٩٢)، ونشر ثلاث تمثيليات صغيرة للدمى، **علاء الدين وبالموليد**، **الداخل وموت تنتاجيل (١٨٩٤)** .

عندما ظهر عام ١٨٩٦، **كنز البسطاء**، الأول من سلسلة أبحاث يمتزج، فيها، التعليق الميتافيزيقي، بتحليل الخلق، انتهت فترة ماترلنك الرمزية الكبيرة . فسوف يسلك عمله بعد ذلك الحين دروباً أخرى . وهو نفسه، يعترف، فضلاً عن ذلك، في رسالة الى ك . كليمر (١٨٩٩)، انتواءه الاهتمام، بعد ذلك، بأشياء «أبسط، أشد صحة وأقوى» . ولم يكن لقاؤه عام ١٨٩٥، بالممثلة الفرنسية جورجيت لوبلان التي سوف تكون عشيقته خلال أكثر من عشرين عاماً، لم يكن هذا اللقاء، دون شك، غريباً، عن هذا التحول في العمل . فبتأثيرها غادر ماترلنك، نهائياً غان عام ١٨٩٧، وأقام في باريس . وإذا كان كتاب «الحكمة والمصير»(١٨٩٨) يمتد، أيضاً، بتأمل «كنز البسطاء» . فإن الأبحاث اللاحقة مكرسة، بصورة أكثر تشخيصاً، لـ «**حياة النحل**» (١٩٠١)، و «**ذكاء الأزهار**» (١٩٠٧). وجربت في المسرح صيغ درامية أخرى،

كالدراما التاريخية (مونافاتا ١٩٠٢) أو مسرحية الجن «الطائر الأزرق» (١٩٠٥) . وأصبح ماترلنك بعد تكريمه بجائزة نوبل للآداب (١٩١١)، بصورة متزايدة، الشخصية الشهيرة التي تقوم بجولات محاضرات في الولايات المتحدة وإيطاليا، الذي يسافر كثيراً ويشتري مساكن متزايدة الاستيهامية . ومع ذلك، استمر القلق الروحي في مراودته وفي انتزاع عدد من الأبحاث منه . وآخر صورة ترينا إياه وهو ما يزال مفتوناً بالسر ومتنبهاً كي يرى، بعينيه، عين العجوز المحتضر الواهنتين، تلك التي لم يكف عن ملاحقة حضورها الماكر .

ليس «**كنز البسطاء**»، كتاباً متجانساً، فهو لا يحتوي الا على إسهام أصيل واحد، الفصل حول «**الصمت**» الذي وضعه ماترلنك في فاتحة كتابه، والذي يحمل علامة لقائه بجورجيت لوبلان - المشار اليها، في النص بهذا التلميح : «شخص كنت أحبه بين الجميع» . وهي، فضلاً عن ذلك، التي أهدي اليها **كنز البسطاء**، وإذا صدقنا الفصول الأولى من كتاب «ذكريات» الذي نشرته بعد قطيعتها مع ماترلنك[1] لدى غراسيه، فإن البحث حول الصمت يدين بالكثير لمناقشاتهما الأولى .

أما بالنسبة لما بقي، فإن الكتاب، كما قلنا يجمع بين مقالات متنوعة سبق أن نشرت في المجلات بين ١٨٩٢ - ١٨٩٥ الا أن النص المكرس لرويسبروك الرائع أقدم : فقد نشرت صيغة أولى منه في عدد تشرين الأول - تشرين الثاني ١٨٨٩ من «المجلة العامة» ثم أعطى ماترلنك صيغة معدلة وأطول بكثير للناشر البروكسلي لاكومبليز لتكون مدخلاً لترجمته «زينة الأعراس الروحية» للصوفي الفلمنكي (١٨٩١) .

والنص المستعاد في **كنز البسطاء** لا يبقي الا على القسم الأول من المدخل الذي صاحب ترجمة ماترلنك لكتابي «**التلاميذ في سايس**»، «**مقتطفات**» (لاكومبليز ١٨٩٥)[٢].

هذه التدقيقات المرجعية القليلة تسمح لنا باستخلاص ملاحظتين: من الناحية الزمنية، ليس تأليف **كنز البسطاء** لاحقاً لفترة ماترلنك الرمزية الكبيرة، ومن الخطأ الاعتقاد بأن المؤلف انتقل، على التعاقب، من الشعر (صدرت. الدفيئات عام ١٨٨٩) الى الدراما ثم الى البحث. فعلى العكس من ذلك، لم يتوقف التأمل عن مصاحبة أشد لحظات الخلق حدة. ومن جهة أخرى، من الواضح أن ماترلنك أجرى حين جمع الصفحات المكرسة لتأليف **كنز البسطاء**، اختياراً، تاركاً، قصداً، جانباً، سلسلة كاملة من النصوص التي تعود الى العهد نفسه - جمعت تحت عنوان: ماترلنك، مدخل الى سيكولوجية للأحلام (١٨٨٦ - ١٨٩٦)[٣] - ومجرياً،فضلاً عن ذلك، داخل بعض النصوص البالغة الطول أو البالغة الخصوصية، تقطيعات بعيدة عن أن تكون بريئة.

وهذه هي الحال مع الفصلين المكرسين لرويسبروك ونوڤاليس. فإذا كانت كتابات الأول واقعة في أساس التعليق الجزئي الذي كرس له في **كنز البسطاء**، فالأمر ليس كذلك بالنسبة للثاني الذي لا يظهر الا في العنوان وفي شاهد استهلالي قبل أن ينخرط ماترلنك في بحث طويل حول الفن وأسرار الحياة الداخلية وكنوز النفس. من المؤكد أن الأمر لا يدور الا حول بداية المدخل المصاحب لترجمات نوفاليس، ونعلم، لأننا لاحظنا ذلك في مكان آخر. إن طريقة ماترلنك هي أن يبدأ تعليقاً بمقدمات تيمية طويلة. ويكفي أن نعيد قراءة مقدمة «**الأبحاث السبعة**

لإمرسون (لاكومبليز، ١٨٩٤) المستعادة في **كنز البسطاء** : فهي تبدأ بعشر صفحات من التأملات حول «الأنا المتعالية» ولا يؤخذ فكر إمرسون في الاعتبار الا في الثلث الأخير من المقال .

ولكننا نرى، على هذا النحو، أن ماترلنك لا يتردد، في برهة إدخاله، في مجموعته، ملاحظات قراءة قابلة للاندماج في المشروع الاجمالي في حرمانها، عند الحاجة ، من علاقتها بموضع الاستناد ليسبغ الانسجام على المجموع بصورة أفضل .

كتاب مفتوح

الا أن ملاحظات القراءة هذه الموضوعة بالضبط، في مركز المجموعة، كانت الوحيدة المزودة بعنوان مشخص، الوحيدة التي كان يجب، منذ ذلك الحين، أن ترد الى موضوع محدد، النصوص المأخوذة في الحسبان . تلك الفصول الأخرى تعالج تجريدات خالصة : الصمت، يقظة النفس، الأخلاق الروحية، الفاجع اليومي، النجم، الطيبة الداخلية، الحياة العميقة، الجمال الداخلي . وتلك التي يبدو أنها ترد الى مقولات للواقع (العارفون، النساء) تفعل، هي نفسها ذلك انطلاقاً من تحديدات مجردة . نحن نتنزه، كما تقول جورجيت لوبلان، في «غابة الأعلام» .

وليس هذا أدنى فتنة في الكتاب، وماترلنك أحسن بأن يستبعد منه حتى في أدق ملاحظاته، كل مضمون موضوعي .

ذلك أن **كنز البسطاء**، كما يسلمه لنا، هو على هذا النحو، على الرغم من مغالاته ولغته المثالية وظلاله الأفلاطونية الكبيرة التي تستمر

من صفحة الى صفحة، عمل «مفتوح» بأحدث معاني الكلمة : من المستحيل أن يُقنّى دفقه في قراءة واحدة موحدة . إنه كتاب يحتوي على كل شيء وعلى عكس كل شيء : الحرية الانسانية وحتمية المصير، المثالية الجامحة وأكثر أنواع الريبة تقززاً، عظمة الانسان وحدوده، قوته وتسليمه، حكمته العميقة وجهله الهائل . وإذا كان ماترلنك لا يتردد في تكرار ذاته، فإنه لا يخشى، كذلك، أن يتناقض . ولكن الأمر لا يهم ما دام لا يدافع عن أية أطروحة . وهو يؤكد القليل فضلاً عن ذلك، بل هو يسأل، بالأحرى، دون أن ينتظر جواباً، بفن خارق في تفكيك الأسئلة لا يمكن الا أن نلمح فيه الأثر المزدوج لمروره لدى اليسوعيين وثقافته كحقوقي ..

إنه كتاب مفتوح دون موضوع . **كنوز البسطاء** تأمل طويل متموج تستريح، فيه الروح من مشاغلها العادية . بإمساكها، هنا وهناك، بالأسئلة التي تقتضيها وتزيد عليها الرهان . إن المؤلف الذي كتب ضمن الاحساس المسبق بالتحليل النفسي (صدر كتاب فرويد : **تفسير الأحلام** عام ١٩٠٠) يحرر الشخص من أناه المحافظة والمختزلة لصالح أنا عاملة، باستمرار ومتيقظة ، متنبهة، ولو كان ذلك، عبر لغة بطل زيها، لكل ما يمكن أن يعيد إطلاقها نحو رهانات أخرى وإنجازات أخرى . يمكن أن يحلم المرء، انطلاقاً من **كنز البسطاء**، بالاجابات التي كان يمكن لماترلنك أن يقدمها لاستجواب معاصره بروست العتيد .

يتكرر، طيلة **كنوز البسطاء** موثوق واحد، التأكيد بأن الحياة المرئية لا تستنفد الواقع وأنه يوجد، خلف جدار الوجود، «مشهد آخر» يغامر فيه، بالرهانات الحقيقية .

يمكن أن نكتشف، من فصل الى آخر، تصوراً طبوغرافياً للحياة الداخلية مبنياً حسب ثلاثة أسوار، سور حياة الأهواء، سور الفكر والذكاء، وأخيراً سور النفس - الوحيد المهم . وفضلاً عن ذلك، يشير ماترلنك، في بداية الفصل المكرس لنوفاليس، الى كيفية وجود هذه الدرجات الثلاث لدى المؤلفين الثلاثة الذي علق عليهم: «رأيت في أفق أعمال رويسبروك تماوج أكثر قمم النفس زرقة، في حين أن أبسط قمم القلب البشري في أعمال إمرسون، تنجز بصورة غير منتظمة . وهنا (لدى نوفاليس) نجد أنفسنا على ذرى الدماغ الحادة والخطرة غالباً ».

إن الفصل الثاني عشر المكرس لـ «الحياة الداخلية» هو خاصة، الذي نجد، فيه، معالجة هذه التيمة، تيمة الوصول الى الحياة الأخرى الى المشهد الآخر . ولكن الصعوبة هي في إيجاد «الطرق الكبرى التي تقود مما نراه الى ما لا نراه» . غالباً جداً ما يعيش البشر كعميان، ولا «يموتون» الا تحت سوط القدر أو الموت، حول جدار الوجود بحثاً عن حدود بصدد الله ». ومع ذلك، كما يتابع ماترلنك، «كن واثقاً من أنك في اليوم الذي توقفت، فيه، لمتابعة شعاع شمس عبر أحد شقوق باب الحياة، قمت بشيء في عظمة تضميدك لجراح عدو، لأنه لم يعد لك، في تلك اللحظة عدو» .

نرى، بوضوح، دون أن نضاعف الشواهد، عمل ديالكتيكية للداخل والخارج، للمستور والمكشوف، للمرئي وغير المرئي، في **كنوز البسطاء**، تسهم، فعلاً، بنصيب أكبر في الحدة الفاجعة، للدرامات الرمزية الكبيرة . فلنتذكر هذا التفصيل : لدى أول عرض لمسرحية «**بيلياس وميليزانده**» في باريس، على مسرح «العمل» في ١٧ أيار ١٨٩٣، كان ستار شفاف

يفصل المشاهدين عن المنصة . أو، فلنفكر أيضاً، في الحيلة التي يستند اليها التقدم الدرامي لمسرحية «الدخيلة» : ففي حين يقترب الموت، لا نرى المريض الذي تفيض روحه في غرفة أخرى .

وكذلك، نكتشف، سريعاً، في **كنز البسطاء** شبكة كاملة من مجازات مركزة على النظرة وعلى صعوبة تبين الحقيقة المخبوءة التي تجعلنا نعيش . ذلك أننا« نتصرف فعلاً، كآلهة، ولكننا عميان نلعب بحجارة طيلة الطرقات» . لقد رأينا الشمس، ومع ذلك، «نتوه عشوائياً في الوادي»، شبيهين بـ «إنسان فقد عينيه في السنوات الأولى من طفولته» . وإذا لم يأت أحد ليقول لنا : «ارفعوا عيونكم، انظروا من أنتم، انظروا ماذا تفعلون» فسوف نبقى، طيلة حياتنا، شبيهين بـ «رجال لم يخرجوا، قط نحو وسط النهار» .

ومع ذلك يلزم أحياناً، القليل من الأشياء لايقاظ الملائكة النائمة في أعماقنا:« الابتسامات، كالدموع، تفتح أبواب العالم الآخر» هذه الأبواب التي يكفي دفعها من أجل الدخول الكامل في سر النفوس . ينبهنا ماترلنك، منذ الفصل الأول، الى أن الصمت وحده، يفتح أبواب الهوة . فمنذ أن نتكلم، «ينبهنا الى أن أبواباً إلهية تنغلق في مكان ما» . بعض الكائنات، كالنساء، تستطيع، أكثر من أخرى، «تقريبنا من أبواب وجودنا» . ذلك لأن الصلات الدقيقة التي تقوم بين النفوس هي «واحدة من الشقوق الضيقة في باب الظلمات التي نستطيع، منها، أن نرتاب لحظة فيما يجب أن يجري في مغارة الكنوز التي لم تكتشف أبداً» .

هذا الشاهد يسمح لنا باستخلاص شبكة مجازية أخرى مرتبطة

ارتباطاً وثيقاً بمقطع الأبواب السرية : سلسلة كاملة من المجازات تتبنين، فعلاً، في المجموعة حسب محور السطح/ العمق . فأعماق الكائن هي التي يجب النزول اليها، دائماً، لنكتشف، كنوزه المخبوءة . يمكن أن لا نعيد الى السطح سوى حجارة زائفة أو قطعاً من زجاج . إن ذلك، لا يمنع كون «أعماق وجودنا» هي التي توجد، فيها ، حقيقتنا المخبوءة . و«ذواتنا، فقط، هي التي توجد، فيها، أشياء أكثر مما تستطيع أن تحتوي عليه كل الفلسفات». وتحت مرآة الذكاء البشري «توجد مرآة أخرى، أقتم وأعمق نخفيها في أكثر أجزاء وجودنا حميمية» . وإذا كان ينبغي، للوصول الى هذا العمق من نفوسنا، الارتفاع الى «ما فوق الأهواء والعقل»، فإن ذلك لا يمكن أن يفاجئنا على اعتبار أن الأمر يدور حول ممارسة الاستبطان للوصول، درجة درجة، الى «الحياة العليا»، الوحيدة التي تهم حقاً .

من المؤكد أنه يتفق «حين نحرك الحجر المجهول تقريباً، أن نتنفس رائحة الهوة البالغة القوة، وتسقط الكلمات، في الوقت نفسه الذي تسقط، فيه الأفكار، حولنا كذبابات مسممة» . كيف لا نقرب مجاز كنز البسطاء المشخص الى الحد الأقصى هذا من المغارة المقززة للنفس التي يجر غولوبيلياس اليها بقصد مشروع أسود لا أدري ما هو ؟ كيف لا نفكر في المغارة التي صحب بيلياس ميليزاند اليها للبحث عن خاتمها (أو عن حبها) الضائع قبل صعود المياه ؟ كل شيء يشهد هنا، في كل الأحوال، على القرابة الوثيقة بين الدرامات الرمزية الكبيرة و**كنز البسطاء** المبني، على الرغم من تجريد كتابته الأكبر، على الشبكات المجازية الكبرى نفسها .

البحث عن المشهد الآخر الذي عرّفناه بوصفه أحد ثوابت هذا الكتاب يقودنا الى أن نعيد ،لحظة، طرح سؤال علاقات هذا الكتاب بالتحليل النفسي .

من السهل أن نبين، في **كنز البسطاء**، قائمة المصطلحات التي سوف يثبتها التحليل النفسي بعد قليل، في معنى مقبول جيد التحديد والتي تبقى، إطلاقاً، مبهمة في تعابير ماترلنك المثالية . فاللاواعي والشعور واللاشعور و**الأنا** العميقة و**أنا** الأهواء ليست، قط، في كتابه، سوى متغيرات محتملة في وصف درجات من حياتنا الداخلية .

وما هو أكثر أهمية هو أن نفحص ،هنا، نظريته في «الدرجة المزدوجة» أو «الحوار المزدوج» كما هي معروضة في الفصل التاسع، «الفاجع اليومي» . يلح ماترلنك، معرفاً بديعية دراماته الرمزية، على ضرورة «أن نسمع من فوق حوارات العقل والعواطف العادية، حوار الوجود والمصير الأكثر رسمية وغير المنقطع» . ويقول بعد قليل : «يجب أن يكون هناك شيء آخر خلاف الحوار الضروري خارجياً . لا يوجد هناك، قط، في عمل ما، ما يهم سوى الكلمات التي تبدو غير مفيدة أولاً . ففيها يجد المرء نفسه، الى جانب الحوار الضروري، هناك دائماً حوار آخر يبدو نافلاً (..) وما يصنع الجمال الغامض لأجمل التراجيديات موجود، بالضبط، في الكلمات التي تقال الى جانب الحقيقة المضبوطة والظاهرة» .

بهذا الانتباه الى ما يقال «الى جانب الحقيقة المضبوطة والظاهرة»،

يلتقي ماترلنك بإحدى مسلمات المنهج التحليلي . ولكن الأمر يدور أولاً، بالنسبة اليه، حول اكتشاف بديعي لا يستخلص كل مداه الابستمولوجي بسبب ريبته، فيما يتعلق به، احتمالاً باللغة - المرتبطة بوضعه كفرانكفوني في منطقة فلمنكية ؟ - وتفضيله الواضح للصمت الذي هو، وحده، المناسب لحوار النفوس . وربما كانت هذه الريبة حيال اللغة والاتصال هي التي تفسر افتتان ماترلنك بالصوفيين والشعراء الذين يكون كلامهم، في جوهره، مجرداً، غير مرجعي .

وعلى كل حال، فانطلاقاً من العلاقة باللغة، أيضاً، يمكن أن نحاول تحديد موقع ماترلنك من الدين . وخاصة من التقليد المسيحي . ذلك أنه غالباً ما يذكر الله في **كنز البسطاء**، خاصة في الفصل الثاني عشر المكرس لـ «الحياة العميقة» . وفضلاً عن ذلك، يمكن أن يغرى المرء بقراءة بعض مقاطع **كنز البسطاء** كنوع من صلوات تسليم، قريبة من «أفيون الشعب» الذي ندد به ماركس .

وربما لم يكن من غير المفيد أن نذكر هنا، كبداية، بالعلاقات الوثيقة التي كانت لماترلنك مع الكنيسة الكاثوليكية والتي تتلخص في واقعتين عظيمتي الدلالة : ففي عام ١٨٨٧، وفي ذروة كتابته «الدفيئات» فكر ماترلنك في الحصول على الاذن الاسقفي(٤) لمجموعته . في عام ١٩٠٧، وضع في قائمة الممنوعين من أجل بحثه حول **الموت** . ما الأمر بالنسبة الى **كنز البسطاء** ؟. . المؤلف لم يفقد بالتأكيد، ظمأه الى المطلق الذي كان يسكنه منذ أولى مجموعاته الشعرية ولكنه تجاوز نيران خبرته الصوفية التي كانت تلتهمه في زمن قراءته المحمومة لكتابات رويسبروك، وصوفيته تتلطف بأخلاق عملية - غير تبشيرية بالمناسبة -

وبقليل من الغنوصية : «ما جدوى السؤال إذا لم يكن هناك، أبداً جواب ؟. وهو ما لا يمنعه، على الرغم من كل شيء من التساؤل دون توقف .

ولكن مسألة اللغة هي ما كان ماترلنك بصددها، ما وراء كل العناصرالمرجعية، في قطيعة صارخة مع التقليد المسيحي كله . فلا يمكن أن يكون موضع بحث، بالنسبة اليه، ان يقبل مسلمة سيادة الكلمة، أن يقبل هذا «الاقتحام المسيحي - اليهودي الذي يقوم على التأكيد، ضد الايمان المشترك بأصل طبيعي، بأن الوجود ليس، في الصميم، شيئاً خلاف تأثير لغة»(٥).

إن ماترلنك يرى أن حوار النفوس والعلاقة باللامتناهي لا ينعقدان الا تحت اللغة، في نوع من الأفق الوهمي الذي تستعيد فيه النفوس حالتها الطبيعية، كجزيئات من الإلهي متحررة من الأهواء والأفكار البشرية : «البرهة التي تتوقف، فيها، العبارة وتختبىء الكلمات هي التي تلتقي فيها، نظرتنا فجأة، (...)، نظرة أخرى كانت تنتظرها بصبر على درب الله» . عندما يحدث لقاء النفسين اللتين تتعارفان، تثق كل منهما بالآخرى، فإن ذلك «هو شيء أعمق بألف مرة لا تستطيع أطيب الكلمات البشرية مذاقاً وأشدها مرونة وقوة أن تلحق بها . يمكن أن يقال أحياناًإنها ذكرى آبقة، ولكنها نافذة الى أقصى حد، عن الوحدة الكبيرة البدائية» .

هل يمكن، لهذا السبب أن نتحدث عن نزعة «بدائية، في **كنز البسطاء** ؟ سيكون ذلك مبالغاً فيه لأن ماترلنك لا يمضي الى درجة تطوير اسطورة أصل - إلا أنه لا يمكن الا أن نتبين الريبة التي يبرهن عنها حيال الفكر والذكاء . «هناك أشياء أكثر الحاحاً وأعمق من

الفكرة، تثبت الحياة الداخلية وتمنع من استعادة التواصل البدائي للنفوس. الأفكار التي لدينا تعطي شكلاً اعتباطياً للحركات غير المرئية للممالك الداخلية». وما دمنا في «العوالم السفلية لذكائنا»، سوف نبقى على مسافات كبيرة من كنوزنا الداخلية، و «أعلى فكرة لي لم تزن في موازين الحياة أو الحب أكثر من الكلمات الثلاث التي كان سيقولها لي الطفل الذي كان يحبني حول خواتمه الفضية، حول عقد اللآلىء أو القطع الزجاجية».

وإذا كانت ريبة ماترلنك باللغة تضعه كما رأينا، في وضع قطيعة بالنسبة للتقليد اليهودي - المسيحي حول سيادة الكلمة، فليس من المستحيل، مع ذلك، أن نطرح، بطريقة، أخرى، مسألة «الديني» في **كنز البسطاء** انطلاقاً من معناه الاشتقاقي: ما يربط ذلك أن لدى ماترلنك هاجس إعادة الاتصالات المقطوعة وإعادة ربط النفس بينبوعها الإلهي - من أجل رقي ثغرات الوجود، احتمالاً، منذ أن ترى. أليس القريب بالنسبة اليه «من يقترب أشد الاقتراب من الله، أي مما هو نقي وطيب في البشر»؟ ولكن علاقة الذات بالتعالي تضيع، هنا أيضاً، في «النقاء» الأصلي. وإذا كانت بعض فئات الكائنات (العارفون، النساء) أكثر قابلية من غيرها لربط الكائن بينابيعه الإلهية، فإنه لا يضعها في تماس مع حقيقة أخرى (لسنا، هنا، بعيدين عن سيكولوجية الظواهر الخارقة) ويمنحها الدخول الى «السور الثالث» بسبب أقوالها بقدر ما يكون ذلك بسبب معرفتها «الطبيعية» لأسرار الموت (العارفون) أو النفوس (النساء). ويعفي تجريد الحديث ماترلنك من التأمل في رؤية الزوجين حيث تكون «المرأة .. الآخر» الذي ينتزع **الأنا**

من باطنيتها ليقذف بها الى لقاء الجماعة[٦] أكثر منها مبعوثة الى ما وراء .

ملح الأرض

نصادف، الى جانب النساء والعارفين، عبر فصول **كنز البسطاء**، موكب الحكماء الطويل الذي تقع على عاتقه مهمة إعادة اشعال الشرارة الإلهية التي ترقد في أعماق كل منا .

إنهم، الى حد ما، عميان مسرح ماترلنك الرمزي، أولئك المعتادون على أن يروا بصورة أخرى، على التنبه لأدنى شعاع شمس يرشح عبر الظل، أولئك الذي عملوا في الصمت والنسيان غير مهتمين بالتقدم بالفكر، بل بالتقدم بمعرفة الأسرار الإلهية التي نحملها فينا . إنهم الأنبياء، ملائكة الحقائق العليا، رسل المجهول . لقد كانوا بسطاء متواضعين أحياناً . ولكن أليست هذه الحكمة المغذاة في معزل عن الشهرة والتي تخصب، مع ذلك، العتاد القديم للفكر الانساني هي، على وجه الدقة، إحدى أنقى جواهر «كنز البسطاء» ؟

عديدة هي تعبيرات النص التي ترد الى الوعد باللقب - المستوحى، دون شك من قراءة إمرسون - وتلح على الغنى الغريب الذي يسكن نفوس أبسط الكائنات «لا ينبغي أن نخطىء، فلأشقى الناس بالذات، ولأكثرهم حرماناً، على الرغم منهم، في أعماق نفوسهم، كنز جمال لا يستطيعون افقاره» . ومن المؤكد أن من تعودوا الجلوس، أكثر من غيرهم، على القمم التي تكسب، فيها، الحياة، النفس، يزيدون، في

نفوسهم «كنز البطولة» . ولكن، حتى «الكائنات المسكينة التي لم تشاهد جميلاً في كل وجودها، تجد، أحياناً، الوسيلة كي تشيد في ظل نفوسها مثلاً أعلى أجمل بألف مرة من أجمل الأشياء التي سمعتهاآذانها ورأتها عيونها» .

هذا التقريظ للغنى الداخلي الذي يحمله كل كائن في ذاته ويرفعه فوقها لمجرد أن يكون متنبهاً اسهم، دون شك، إسهاماً كبيراً في النجاح الهائل لكتاب **كنز البسطاء** . الا أنه ليس من أجل ذلك، تقريظاً لمساواة اجتماعية متنامية(٧). فحيال الموت، هناك فقط، يمكن مقارنة المولود من البشر بآخر سكان الأرض، الامبراطور بالمتسول، الفلاح براسين أو شكسبير .

ماترلنك لا يخشى بعد أن أشاد أكثر من مرة بفضل «الناس النبلاء الصامتين» الذين يفكرون في الظل، وهم «ملح الأرض نفسه»، أن يقارن حكمة مارك أوريل النموذجية بحكمة طفل «لن يكون قادراً على أن يقول لأمه ما رآه» ومع ذلك، وفي لحظة «يعرف كل ما أنا عليه، كل ما كنته، كل ما سأكون عليه» وكذلك «رأى بشر يملكون عبقرية أدنى بكثير من عبقرية شكسبير وراسين حياة مضيئة بصورة سرية لم تكن تلك التي كان هؤلاء المعلمون قد عرفوها، حصراً، سوى مقلوب لها» ما وراء المشادة الجمالية التي بدأها ماترلنك في الفصل الحادي عشر (الفاجع اليومي) ضد أسلافه المشهورين، فإن إمكانية أن يكون الفن مدخلاً الى أعماق النفس هي، ذاتها، التي يعارضها .

هل سيكون الأمر خلاف ذلك بالنسبة للحب ؟ نعم إذا كان المقصود به اللقاء الروحي بين نفسين تتعارفان في بعدهما الإلهي، وليس لهما

ماتفعلانه «بالكلمات والرعايات الصغيرة وابتسامات الحب العادي» مثل هذا الحب «يرد أكثر الناس طيشاً الى مركز الحياة» . ولكن الحب ليس، على هذا النحو، في متناول أول قادم . من أجل ذلك، يعطينا ماترلنك، على كرَّتين، في الفصل الحادي عشر (الطيبة غير المرئية) وخاصة في الفصل الثالث عشر (الجمال الداخلي)، الوصايا الرئيسية بصدده . وسوف ندرس باهتمام الصفحات الأخيرة من الفصل الأخير حيث تصل طريقة التكرار، النموذجية في الكتابات الماترلينكية إلى ذروتها . المؤلف يكرر ست عشرة مرة تعبير «وهكذا، فإن الحب» ويعرفه ست عشر مرة بمصدر يرن كأمر قطعي، يطرق على حساسية القارىء، وليس ذلك، بعد، بالتواتر اللاذع للصور، بل بالتلخيص المنتظم لكل تيمات الكتاب : استدعاء المقولات الأخلاقية الكبرى للجميل، للخير وللحق، تطهير النظرة، خلاص النفس، الارتفاع نحو الله.

الحكمة والمصير

الا أن المسيرة الداخلية المقترحة في **كنز البسطاء** لا تضع الكائن في مأمن من وطأة مصيره . ولا يستطيع ماترلنك، في البرهة نفسها التي ينادي، فيها بـ «أخلاق صوفية» قائمة على التعرف على النفوس، أن يتجنب شبهة الحتمية : أليس فينا، نجم مركزي لا نراه، ولا تكون أكثر رغباتنا سرية سوى كواكبه العاجزة ؟ هل في مركز وجودنا شجرة شفافة ليست كل أفعالنا وكل فضائلنا سوى أزهارها وأوراقها العابرة» ؟

واللقاء العشقي هو، خاصة، الذي يظن ماترلنك أنه يتعرف، فيه،

على هذا التحديد المسبق السري لأنه، «يبدو أن المرأة هي أكثر منا تبعية للأقدار» ولكن، أليس العارفون هم أنفسهم، كلياً، في يد القدر، على غرار شخصيات الدرامات الرمزية الكبرى ؟ ويتساءل ماترلنك، منذ ذلك الحين، قائلاً :« ما جدوى تقوية أنا ليس لنا، عليها، أي تأثير تقريباً ؟ إن نجمنا هو الذي يجب أن نلاحظه . إنه جيد أو سيىء، شاحب أو قوي، وكل قوى البحر لن تستطيع أن تغير فيه شيئاً».

هل يأتي هذا القبول المستسلم للقدر ليناقض كل تعليم الحكمة المعطى على طول صفحات **كنز البسطاء** ؟ ألا يجب، بالأحرى، أن نقرأ تحت التناقض الظاهر، التساؤل نفسه عن حدود الروح البشرية ؟ نحس هنا، دون شك، أحد الرهانات الكبرى للكتاب الذي يسعى، للمرة الأولى في عمل ماترلنك، الى تنظير حدود العقل المنتصر . وكما أن الريبة حيال اللغة جعلت الكاتب متنبهاً الى كل ما يقال ..« الى جانب الحقيقة المضبوطة والظاهرة»، فإن ارتيابه حيال العقل الخالص يقوده الى التساؤل عما يجري في الجانب الآخر من الظواهر العقلانية دون أن يأخذ موقفاً، من أجل ذلك، حول الطبيعة المضبوطة العاملة .

الا أن ماترلنك لا يمضي الى أقصى اكتشافه : فكما تخلى عن تعميق شعوره المسبق بثغرات الذات، يتعجل الى أن يغطي، تحت البوح الغنائي، ثغرة اللاعقلاني التي تبينت لحظة، فلنعد قراءة الفصل الحادي عشر الذي هو تتمة للأحاديث الحتمية النزعة لـ «النجم» : إنه أكثر فصول الكتاب غنائية، أكثرها ثقة بقوة «الطيبة غير المرئية» . وليس كل النص سوى بوح طويل يدعو الى الحب وتواصل النفوس .

ربما كان هذا التوازن المستحيل بين حدوس الشاعر وتنظيرها المتلمس

هو الذي يقع فيه، جمال **كنز البسطاء** الذي لا يمكن استيعابه، . والتساؤل الروحي الكامن فيه لم يكن، دون شك، أقل إسهاماً في نجاح الكتاب من الأسباب المذكورة قبل قليل .

ولن يتوقف ماترلنك، بعد هذه المحاولة الأولى المشبعة بالشعر، عن مراكمة مؤلفات التأمل لمحاولة لتعريف «واحد لا يسمى، لا يريد المؤلف مع ذلك، أن يبعث الحياة فيه».(٨) وبعد صدمة الحرب العالمية الأولى، سوف يتخلى، كلياً، تقريباً، عن سبر دروب الخيال ليتشبث بتوضيح اللاعقلاني من خلال كتابة متزايدة الصفاء. وكما لو لم يكن قد انقطع عن الأمل في أن يبدد يوماً، الظلال الأخيرة ، هذه الظلال التي جعلها تتبدد في مسرحه الرمزي الذي كان قد شعر بحمّاه في «دفيئاته» الكبيرة والتي استمر في سماع صرخاتها في قصائده الأخيرة .

* * *

الهوامش

(١) – جورجيت لوبلان : ذكريات (١٨٩٥ – ١٩١٨) ، باريس ، غراسيه ، ١٩٣١) .

(٢) – النص الكامل لهذين المدخلين استعيد في ماترلنك : مدخل الى سيكولوجية للأحلام (١٨٨٦ – ١٨٩٦) ، نصوص جمعها وعلق عليها ستيفان غروس ، بروكسيل ، منشورات لابور . ١٩٨٥ ، مجموعة « أرشيفات المستقبل » .

(٣) راجع الهامش السابق .

(٤) – انظر في هذا الصدد ، دراسة جوزيف هانز التي ترافق الطبيعة النقدية لأشعار ماترلنك الكاملة (منشورات نهضة الكتاب ، ١٩٨٣) .

(٥) – غي سكاربيتا : الدنس ، باريس ، غراسيه . مجموعة « صوور » ص ١٤٧ .

(٦) – راجع ، في هذا الموضوع ، الصفحات التي كرسها موريس بلانشوا (تواصل العشاق في . .) التواصل غير المعترف به » (منشورات مينوي ، ١٩٨٣) .

(٧) – كان ماترلنك ، مع ذلك ، مثل فرهارين مؤيداً للأفكار الاشتراكية ، كان يعاشر فاندرفلد وديستريه وبيكار الذين طبقت تصوراتهم (. .) التجديد في المسرح ، في مسرح ماترلنك الرمزي . راجع ، بهذا الصدد . بول أرون : « الكتّاب البلجيكيون والاشتراكية » (١٨٨٠ – ١٩١٣) ، بروكسيل ، منشورات لابور ، ١٩٨٥ ، مجموعة ، أرشيفات المستقبل .

(٨) – مارك كاغيبور : ماترلنك الرائد . في مجلة شايو ، العدد ١٠ ، ١٩٨٤ ص ٥ .

الفهرس

مقدمة.. 5
صوت غريب.................................... 7
الى السيدة جورجيت لوبلان............................ 15
الصمت 17
يقظة النفس.................................... 27
العارفون...................................... 35
الأخلاق الصوفية.................................. 43
حول النساء..................................... 51
رويسبروك الرائع.................................. 61
إمرسون....................................... 75
نوڤاليس....................................... 87
الفاجع اليومي................................... 97
النجم.. 107
الطيبة غير المرئية................................. 119
الحياة العميقة................................... 129
الجمال الداخلي.................................. 143
قراءة في الكتاب.................................. 155

موريس ماترلنك

نوبل ١٩١١

- ولد في ٢٩ آب سنة ١٨٦٢ في بلجيكا . أقام في باريس سنة ١٨٨٧ حيث تعرف على زعماء المدرسة الرمزية في الشعر .

- عاد الى بلجيكا وأقام فيها طيلة حياته بعد وفاة والده .

- بدأت حياته الأدبية سنة ١٨٨٩ بنشر ديوان شعر .

رواية « الأميرة مالين » كانت في البدء شعرية ، ثم أعاد كتابتها نثراً . كتب روايات تمثيلية من بينها « مذبحة الأبرياء » و « بيلياس وميليسياند » .

- عام ١٩٠١ أصدر كتابه « حياة النحل » وهو مولفاً نثرياً تمتزج فيه الفلسفة والخيال والتاريخ الطبيعي .

- « الطائر الأزرق » يعتبر من أثاره الخالدة التي يعرض فيها آراءه الميتافيزيقية الصوفية .

- عام ١٩١١ حاز على جائزة نوبل .

- توفي في ٥ آيار عام ١٩٤٩ .

ISBN:2-84305-318-X

9 782843 053184

السعر: ١٥٠ ل.س.